لا تغمض عينيك!

د. حسّان عبّاس

لا تغمض عينيكَ!

سلسلة شهادات سورية -17- لا تغمض عينيك!
د. حسّان عبّاس

الإخراج الفني: فايز علام
لوحة الغلاف: فرنشيسكو غويا (Francisco Goya)
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى ـ 2016

ISBN: 978-9953-583-71-6

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا ـ بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان
هاتف: 750054 1 961+
فاكس: 750053 1 961+
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

الإهداء

إلى «آرام» و«يزن».....لِكيلا تنسيا.

«وبعد أن قتل الأخ أخاه، ودمّر الجار بيت جاره، واغتصب القبضاي أرملة أستاذ المدرسة، وكسرت نساء الحي القبلي جرار نساء الحي الشمالي، واشتعلت النيران في حقول الجميع، وانتشرت القبور كالفطر حتى في حدائق البيوت، وأُفقر الجميع حتى باتوا يقتاتون دود الأرض... جلس من بقي من أهل القرية تحت شجرة التوت اليابسة خجلين من أنفسهم، مستنكرين لما اقترفت أياديهم، راغبين أن يقول كل واحد منهم للآخر: لماذا فعلنا هذا؟! لكن الشعور بالعار كان أقوى من قدرتهم على الكلام فقطعوا الشجرة وجمعوا حطبها وبالبقية القليلة الباقية من أخلاقهم، أشعلوا النار بأنفسهم، حتى لم يبقَ منهم أحد.

لكن، على هامش الحكاية، كان هناك آخرون، عشرات، مئات، آلاف ممن رفضوا المقتلة، يعملون ليل نهار، يزرعون شتلات أشجار جديدة، يرعونها بصبر وثقة وألم، لتكبر، وتينع، وتعطي في ما سيأتي من أيام، عالماً بهياً، يتطاول نحو الشمس، ويعيش بكرامة، ويقسم ألا تعود حكايتنا، حكاية أسلافهم الحمقى، من جديد».

نشرت نصوص هذه الشهادة في نشرة المدن الإلكترونية بين كانون الثاني 2013 وأيلول 2014، باستثناء نص «حيث لا مكان» الذي نشر في جريدة السفير تحت عنوان «طفل الحديقة»، ونصوص «مواقف»، والنصوص (3-4-5-6) التي كتبت في عام 2012، وتنشر هنا لأول مرة.

1. مواقف

موقف 1

السيّد (م) من المخيم

التقيته اليوم صدفة في سوق الجزيرة السادسة في مشروع دمر. سألني: أين أجد هنا دكاناً يبيع ملاعق طعام؟ أشرت له أين عليه أن يذهب.. ثم أضفت: لكن يمكنك أن تجد صحوناً وملاعق بلاستيكية هنا..

قال: يا الله، بلاستيكية أو معدن لا فرق.. ثم قال بحنق: شو الله بلاني لأسكن في المشروع ؟! كنت ملكاً في حارتي. وشتم من كان السبب.

كان واضحاً أن لديه حكاية من حكايات الحزن السوري اليومي.

سألته: من أي حارة أنت؟ قال: المخيّم. وبدأ يروي: كنت مقيماً في المخيّم، وعندي شقة «تعبان عليها»، وأخي جاري في الطابق نفسه. وعندي محل لبيع الأدوات الصحية. عندما بدأ القصف أخذنا الضروري من أغراضنا، و270 ألف ليرة كانت في البيت وركبنا السيارة أنا وزوجتي وابني وأخي. وأسرعنا بالهروب. بعد مئتي متر من البيت أصابتنا قذيفة. قُتل أخي وجرحتني شظية في ظهري. واحترقت السيارة. ثم جاءت الطائرات ودكّت الحي. الطابق الذي نسكن فيه دُمّر كليّاً والمحل احترق

بما فيه. خرجنا من المشفى أول أمس وجئنا نستأجر هنا... يا رجل معقول: شقة 115 متراً «ما فيها حتى ملاعق لناكل» بخمسين ألف ليرة. «بس لأنهم عرفونا نازحين؟».

تحلّق عدد من الموجودين حولنا بين فضولي ومواسٍ وأصحاب حكايات أخرى...

سيّد (م) أرجو أن تسامحني فقد ظننت عندما وجهت لي سؤالك الأول أنك تحضّر لسهرة عيد الميلاد المجيد وتريد شراء ملاعق لأن ما لديك منها في البيت قد لا يكفي للعائلة المجتمعة للاحتفال.

* * *

موقف 2

أبو هادي

ككل صباح، وفي التوقيت ذاته، ومن المكان ذاته. صعد أبو هادي إلى الميكروباص المتجه إلى دمشق. ما إن جلس حتى أحاط وجهه بأصابعه، ثم بدأ يكلّم نفسه: «ماقلتّلك يا هادي لا تطلع هلق؟ لك ليش طلعت يا ابني؟ يلعن أبو المازوت وساعته. كنا حطّينا هالبطانيات ومرقناها للصبح. آخ منك يا هادي، طول عمرك ما بتسمع الكلمة. حرقتلي قلبي يا بيّي. الله يسامحو اللي قوّصك لو كان بيعرف قديشك طيب وابن ناس ما كان عمل عملتو. الله يسامحو. بس هداك اللي عطاه أمر التقويص الله لا يسامحو، ويفجعو بولاده مثل ما فجعني فيك. لك ليش رحت يا هادي، لك ليش طلعت؟ ضروري كنت تطلع؟ يلعن أبو المازوت».

قال سائق الميكرو: «اعذروه يا جماعة! من يوم ما قنصولوا ابنو صار بيحكي مع حالو، متل مانكن شايفين».

* * *

موقف 3

على هذه الأرض ما يستحق الحزن

خط الطائرات المتجهة إلى مطار «حميمين» يمر في سماء قرية (د.ب.)، التي يرى أهلها الطائرات وذيل دخانها الأبيض.

عندما مرت طائرة النقل الضخمة اليوم، رفعت أم يوسف السبعينية نظرها الضعيف صوبها وتنهدت: «آخ يا قلبي! قولتك كم شب جايبة اليوم؟! الله يعين اِمهاتن».

* * *

موقف 4

فراس

اليوم دخل فراس ابن بائع الخضار شهره الرابع في «المكان المجهول».

يوم 18 آب، لم يقتنع الشاب المسلّح الواقف على الحاجز أن بطاقة فراس الشخصية انكسرت قبل ساعات، وأنه كان عازماً على الذهاب لبدء معاملة استبدالها «بس يطلع الضو».

كان فراس يعشق النكات، الماجنة تحديداً، ولا يحرّرك من حانوته قبل أن يُسمعك «بس هي... آخر وحدة».

لم يترك الأب الكهل مخفراً أو قِسماً أو فرعاً أو إدارة أو «كولبة» إلا وسأل فيها عن ابنه الأصغر، ليس لأنه ابنه الأصغر فقط، ولكن لأن كنّته تنتظر أول ولد بعد أيام، ويريد أن يفرح بحفيده مع أبيه. بعض المتصيدين المهرة وعدوا الأب، وقبضوا، سلفاً، أثمان وعودهم الكاذبة. وبقي يقول: «مستعد لدفع ما يطلبون كرمى رؤيته حياً». لكنهم اختفوا ولم يظهر فراس.

ذات صباح، اتصل مجهولون بالأب ليخبروه أن ثمة جثثاً لشباب على طريق زراعي، فذهب هناك وقلّب بين الجثث علّه يشفي قلقه بيقين أشد قسوة من الشك. لم يكن ابنه هناك.

تكررت الحكاية مرة، مرتين، عشر مرات، وفي كل مرة كان يذهب ويقلّب الجثث وبعضها تكون قد نهشته الكلاب.

قال لي وصورة الموت تتخايل في عينيه: «لن أصغي لهذه المكالمات بعد الآن، ولن أذهب إلى أي مكان». سألته وجلاً: «كأن أمراً ما جرى معك؟»، أجابني: «اليوم، بعد الشروق ذهبت إلى المنطقة التي أخبروني عنها. كانت هناك خمس جثث، امرأة وأربعة شباب. اقتربت من جثة وجهها إلى الأرض وقلبي يخفق بقوة. كنت مقتنعاً أنه فراس. قلبته. العينان منتفختان، والمعالم غائمة. كان هناك خيط من دم جاف يمتد من عينه اليسرى إلى الرقبة عابراً تحت الأذن. أخذت قطعة قماش ومسحت الدم، كنت أقنع نفسي أنه ابني. رأيت ندبة جرح قديم وراء صيوان الأذن. لم يكلمني فراس عن جرح خلف أذنه البتة. أتراه هو؟ قلبته ذات اليمين وذات الشمال... أهو ابني؟ يا الله كدت أجن وجلست أبكي على هذا الشاب... الذي قد يكون ابني! لكن هل هو ابني؟ صدقني لا أعرف».

وغرق في صمت عميق.

* * *

موقف 5

جامعة السوربون وعنصر الأمن

عندما اقتربنا خالد خليفة وأنا وأربعة أصدقاء آخرين من جامع لالا باشا للمشاركة بتشييع الشاب ربيع الغزي، استوقفنا ثلاثة رجال

أمن وسألَنا زعيمهم : «ممكن نتعرف عليكن يا شباب؟ أنتم قادمون للمشاركة بتشييع الشهيد مو هيك، لأنو بالنسبة لنا أيضاً، هو شهيد»، بادر خالد للتعريف: «الدكتور فلان (عني)، أنا، خالد خليفة، روائي، ....»، ثم سألنا الزعيم إن كنا من أهل الفقيد فأجبته بأننا من أصدقائه في الجو الثقافي والفقيد كان موسيقياً... ومرت الأمور طبيعية جداً... بعد خروج الجثمان من الصلاة مشينا، نحو المقبرة. كان بعض الشباب الأبطال في الخلف يقرؤون الفاتحة ويكبرون، طالبهم عناصر الأمن بالسكوت لكنهم لم يسكتوا، بل رفعوا أصواتهم أكثر. وفجأة هجم العناصر على الشباب والصبايا المشيّعين، وأخذوا يشتمونهم ويضربونهم. كنا نريد الوصول إلى المقبرة للمشاركة في الدفن، فتجاوزنا الجنازة. وما أن بلغنا زاوية مقبرة الدحداح حتى رأينا أمامنا الزعيم إياه وعناصره يأمروننا بترك المكان ركضاً: «اركضوا يا أولاد الـ...، يا أخوات الـ... يا.. يا...».

مشينا خالد وأنا وصديقتنا كوليت في الشارع المؤدي إلى الباب الغربي للمقبرة. وفجأة صرخ الزعيم: «اركضوا يا أولاد الـ...» وهجم علينا، هو وعناصره بأسلحتهم المعلّقة في أعناقهم، وبعصي خشبية يلوّحون بها في أيديهم وانهالوا بالضرب.. توجّهوا نحو خالد أولاً، فصرخ في وجههم بصوته الهادر. لكن ثلاثة منهم التفوا حوله، وضربه أحدهم بقطعة خشبية كأنها ساموك خيمة وكان الزعيم يقول له: «موسيقا يابن الـ....»، رفع خالد ساعده ليحتمي من الضربة، فتلقاها بها. سمعت صوت العظم ينكسر. اقتربت منهم وصحت: «ليش عم تضربوه، هادا ما له علاقة بشي» لأشعر لحظتها بضربة على ظهري أوقعتني أرضاً، وكنت أسمع الزعيم يقول لعناصره: خذوه (يعني خالداً) إلى السيارة، ثم يلتفت نحوي ليصرخ: «قلت لك اركض يا دكتور الـ....»، وبينما أنا ألتقط نظاراتي التي وقعت أمامي، سمعت من الخلف صوت كوليت ينبهني بذعر،

فنهضت مسرعاً، وفي هذه اللحظة تماماً، نلت ضربة قوية على قدمي من فوق الحذاء وسمعت عنصر الأمن الذي ضربني يصرخ بسخرية ماجنة: «دكتور....! دكتور وما بتعرف تركض؟».

وأنا في حي «عين الكرش» أجرجر قدمي المتورّمة (عرفت في المشفى لاحقاً أنها مكسورة) استرجعت الجملة الأخيرة، الجوهرة التي نطق بها عنصر الأمن العظيم. ظلُّ الخشبة المرفوعة بيده. والتي لولاها لما كان له أي ظل على الأرض، وتنبّهت كم هي جامعة السوربون التي قضيت سنوات كثيرة من عمري أجتهد فيها لأحصل على شهادة علمية مشرفة.. كم هي مؤسسة فاشلة، ولا قيمة لها لأنها لم تعلّمني كيف أركض أمام عنصر أمن، ظلُّ خشبة على الأرض.

* * *

موقف 6

رسالة إلى باسل شحادة

السلام عليك يا باسل حيث ترقد في أرض طاهرة مجبولة بدم الشهداء.

السلام على روحك التي تطوف في سمائنا تبدد الظلمة الجاثمة على الأفق.

السلام على ابتسامتك يرفعها أصدقاؤك أيقونة تولّد الأمل في النفوس.

السلام على ذكراك ترسمها سماتك: الاستقامة والصدق والتسامح وحب الوطن.

أذكر يا باسل أيامنا السينمائية في دمشق القديمة واجتهادكم أنت وكنانة وسيلينا لإنجاحها وجعلها فرصة للاكتشاف والمعرفة وتبادل الآراء.

أذكر دراجتك الهوائية وسيلة انتقالك في المدينة، ويوم سألتك عن تعلّقك بها أجبتني أنك من أنصار حماية البيئة ولكي تكون صادقاً مع نفسك تمتنع عن المشاركة في تلويثها.

أذكر وقت كنت تخطط لرحلتك نحو الشرق وكلمتك عن فيلم (لماذا ذهب بودي دارما إلى الشرق). قلت لي يومها إنك مثل بودي الصغير ترحل هناك لتكتشف نفسك. كنت تكلمني كلما أتيحت لك الفرصة لتقول لي كم جميل هو العالم وكم غنية كانت تجاربك على الطريق.

أذكر ترددك وقت تقديمك طلب المنحة وكم كنت ألحّ عليك بمتابعة العمل للحصول عليها.

أذكر أحاديثنا بعد سفرك. سألتك مرة عن أحوالك فأخبرتني أنها ليست مستقرة وبأن بالك مشغول دوماً بأخبار الشام. قلت لي: «حاسس حالي مو هون، لساتني عنكن». قلت لك إنك تحظى بفرصة رائعة لكي تقدّم خدمة للوطن من خلال تحصيلك العلمي... فأجبتني أن الأمر ليس بإرادتك لأن روحك في سورية. قلت لك في آخر حديث هاتفي لنا وأنت في أمريكا: أقبل يديك لا تعود قبل أن تنهي دراستك فأجبتني أنك ستموت قهراً إن بقيت...

أذكر أخيراً حديثنا حول الفيلم الذي كنت تعدّه عن أغاني الثورة... كتبت لي: نحن حتى الهتافات نقولها بطريقة ملَحّنة وغنائية. ونرقص عليها. من قلب الحزن نرقص، مثل زوربا...

يا باسل، أيها الزوربا الصغير نحن اليوم حزانى على فقدك، ولن نرقص... لكننا نعدك أننا سنفعل ذاك قريباً كرمى لك ولكل الشهداء. وأعدك أن أرفع أول كأس على اسمك.

ارقد قرير العين أيها الشهيد فسورية، سوريتك ستكون بخير.

* * *

موقف 7

فؤاد

كانوا يلملمون أنفسهم ويجتمعون في بيت أحدهم، أو بيت أحدنا، أو في البيت الذي استأجره لهم ناشط ميسور في منطقة الجسر الأبيض. بضعة شباب وشابات، وأحيانا عشرات، عرفوا أن التاريخ يُصنع تحت أبصارهم، وبأيديهم، فغذّوا السير ليلحقوا بما فاتهم من خبرة، أو رأي، أو نصيحة ظنوا أنهم واجدوها لدينا، نحن «الجيل القديم»، أو «أصحاب الخبرة» كما كانوا يحبون أن ينادونا. عشرات «الجلسات» جمعتني معهم. كنّا نتناقش حول القضايا التي تؤرقهم: سلمية المظاهرات، المواطنة، مقاومة الطائفية، تاريخ سورية، الدستور، التنظيم، المجتمع المدني، العلمانية، أهمية الحوار...

عشرات الشابات والشبان ينضحون بالفرح والجمال والطاقة. كنت أرى فيهم شمس الغد، وأمل الحياة. وكانت أسئلتهم تحفزّني لأجتهد في البحث عن أجوبة ناجعة لأسئلتهم.

في نهاية واحدة من هذه الجلسات، وكانت في بيت في حي الشعلان، بقي أربعة شباب من دوما يسألونني عن قضايا ثقافية منوّعة. وقبل خروجهم، وأنا في غمرة الفرح لما نعيشه ويعيشونه قلت لهم: أنا خجل منكم يا شباب.. سأل أحدهم: لماذا؟ أجبت: لأني هنا أحادثكم في الثقافة وفي النظريات بينما أنتم ستخرجون يوم الجمعة في مظاهرة رافعين أرواحكم على راحاتكم.

علّق أحدهم، كان من دوما، اسمه فؤاد: لا حكيم... لا حاجة لنا بك في المظاهرة، أنت لن تستطيع أن تركض ولا بدّ أن تقع وعندها ستحتاج لأربعة يحملونك وستعطلنا عن عملنا. لذلك من فضلك ابقَ في البيت... وضحك ضحكة مفرقعة هو وأصحابه.

خرجت مظاهرة كبيرة في دوما يوم الجمعة 24 آب 2012، قوات من الجيش والمخابرات واجهتها، ومنعتها من التقدم، ثم بدأ إطلاق الرصاص. رصاصات تتهمر كالمطر، استقرت واحدة منها في رأس فؤاد.

* * *

2. حيث لا مكان

الساعة السادسة صباحاً من آخر يوم جمعة من شهر آب عام 2012. حديقة من حدائق مركز مدينة دمشق. بقايا مرج أخضر، ومساحات ترابية ضيّقة تتداخل لترسم ثوباً مبرقعاً يخفي وجه الأرض.

على هذه الأرض، وبين كثير من أكياس النايلون التي لم تصل هنا لتلوين المشهد، كتل بشرية مستلقية، لا تفاصيل لها، كأنها ضربات ريشة خشنة وزّعها، فوق لوحة الحديقة، رسام فوضوي. فجأة، وفي طرف المشهد، ينتصب جسد صغير، كل ما فيه يوحي من بعيد بأنه جسد طفل خطى نحو المراهقة. تسع سنوات أو عشر، ليس مهماً أن نعرف، بل ربما لم يعد ممكناً أن نعرف، لأن الوثائق التي تثبت ميلاده راحت، في جملة ما راح، في ذاك الذي كان بيتاً في مكان ما من ضواحي دمشق المدمرة. أدار الطفل النائم-الواقف رأسه بحركة كسولة. لم يكن يستطلع المكان، كان يبحث عن نقطة ارتكاز، عن معلم ما يطابق صورة مختزنة في ذاكرته. لم يوفّق في المحاولة الأولى، فألحقها بأخرى تحمل قدراً أكبر من الإرادة، إرادة الكشف عن معلم أليف. يبدو أنها أيضاً لم تنفعه، فأجهش ببكاء كامد لا صوت له، لكن ارتعاش الجسد، وبعض الشهقات فضحته. رفع إلى وجهه رسغين عاجزتين وضغط بهما على عينيه، وحين

رآني أشاح بوجهه، ثم تهاوى إلى مكانه السابق، كتلةً ضئيلة من بين تلك الكتل المستلقية على أرض الحديقة.

يحكي هوميروس في الملحمة اليونانية الشهيرة «الأوذيسة» قصة «إيلبينور Elpinor»، وهو شاب من رفاق «أوليس» في طريق عودته إلى موطنه بعد انتصار طروادة. وذات صباح، وبعد أن خمر الجمع احتفالاً بالخلاص من مفاعيل الساحرة «سيرسيه»، استيقظ «إيلبينور» النائم فوق مصطبة ثملاً، وبما أنه لم يكن قد أَلِفَ معالم المكان الذي كان ينام فيه، سقط عن المصطبة، ودُقّت عنقه. وقد استثمر علم النفس هذه الحكاية الأسطورية لتوصيف مجموعة من الأعراض، أطلق عليها اسم «تناذر إيلبينور»، تعبّر عن اضطراب نفسي يتجلى بحالة تغيّم وعيٍ تنمحي خلالها الذاكرة المَعلَمية للمريض، فيفقد توازنه ويهوي، ويمكن أن يقدم أحياناً على ارتكاب فعل جرمي.

أغلب الظن أن طفل الحديقة الدمشقية سقط عند إفاقته غير المكتملة لأنه لم يتعرف على المكان الذي وجد نفسه فيه، إذ لا شيء مما يحيط به في فضائه المؤقت هذا يجد له في ذهنه صورة راسخة يتطابق معها. فضاؤه المؤقت هو الخواء ذاته. لا جدار يحمل صورة الأب الشهيد أو إيقونة أو آية الكرسي. لا نافذة تتسلل عبرها أشعة الشمس، ورياح الشتاء، ووعود العصافير. لا سقف يمنحه الشعور بالأمان... أما الأثاث فإما «نُقِلت» قطعه لتملأ زوايا وغرفاً فارغة في بيوت أخرى، في مناطق أخرى، وإما اختلط ركامها مع ركام البيت المدمّر أو احترقت في النار التي عصفت بالبيوت.

في المكان الذي جاء منه الطفل، كانت كل هذه الأمور (الجدار والنافذة والسقف والأثاث...) حاضرة، ماثلة، ولد الطفل وكبر بينها. وتشكّلت ذاكرته البصرية والمعلَمية اعتماداً عليها. لو أفاق الطفل في

عتمة الليل لما احتاج هناك إلى ضوء ليعرف طريقه في زحمة الأشياء، أما هنا في الفضاء الخاوي فهو لا يعرف كيف يتجه فيسقط حيث يقوم.

في المكان الذي جاء منه الطفل كان ثمة مكان، وكان ثمة وجود، وكان ثمة ذاكرة. كان ذلك قبل أن يقرر عقل شيطاني يستخف بالذاكرة ويهزأ بالوجود (ما عدا وجوده هو)، أن يدمّر المكان ويشرد أهله ويقذف بهم إلى حيث لا مكان.

كم هي مساحة الدمار في سورية الآن؟ وكم ستصبح غداً؟ كم يبلغ عدد المواطنين المهجرين من بيوتهم؟ كم عدد البيوت التي لم تعد قابلة للسكن؟ كم عدد الأحياء التي لم يبق منها سوى اسمها؟ كم عدد العائلات التي أصبحت بلا مأوى؟ مجرّد التفكير بهذه الأسئلة يبعث اليأس والألم، فما بالك إن عرفنا الأجوبة! لكن أين المهرب من التفكير في هذا الواقع الناشئ بفعل العقل الشيطاني؟ بل أين المهرب من تجاوز الأعداد المجردة والباردة رغم كل ما تبعثه من حزن، للوصول إلى الإنسان، إلى الحقيقي في ذاك الواقع، إلى طفل الحديقة وعائلته، أو من تبقى منها. كيف يمكن له، لهم، أن يعيدوا بناء ذاكرتهم البشرية بشكل سوي؟ «أن نكون بشراً يعني أن يكون لنا مسكناً» يقول «باشلار». والمسكن، مرة أخرى، هو الجدار والسقف والنافذة والأثاث..، إضافة إلى «التاريخ» الذي نما في كنفها وبين تلافيفها، المسكن هو الذاكرة التي نسكن إليها. أما في الحديقة، حيث لا مكان، فلا يمكن لأحد أن يبني ذاكرة. الذاكرة لا تبنى على خواء.

المواطنون السوريون المهجّرون إلى الأبنية المدرسية ليسوا بحال أفضل من أولئك الباقين بلا مأوى، سكان الحديقة. لأنهم سكنوا إلى مكان وهمي، أرخوا روحهم على جدران ونوافذ وسقوف ليست سوى وهم يعرفون أنه لا يعوّل عليه. زد على ذلك أن هذا المكان لا يمكنه أن

يحتضنهم، فهو مرصود لحنان من نوع آخر. حنان عليه أن يغمر أطفالاً سيأتون ليتعلموا، في أمل أن يساهموا في بناء وطنهم.

لكن الخوف كل الخوف ألا يجدوا هذا الوطن. وأن يصبح الجميع، أهلهم وهم ونحن، حيث لا مكان.

2 **أيلول** 2012

3. عصيان طائفي

في كلمة ألقاها مؤخراً أمام اجتماع أصدقاء سورية في مراكش، طالب السيد الشيخ أحمد معاذ الخطيب العلويين في سورية بعصيان مدني. قال الشيخ: «أوجّه رسالة مباشرة إلى الأخوة العلويين، ونقول، بكل صراحة، إن الثورة السورية تمد يديها لكم، فمدوا أيديكم لها! وابدؤوا العصيان المدني ضد النظام! فقد ظلمكم كما ظلمنا».

ليس في الواقع ما لا يبرر توجّه أي إنسان عادي إلى أهل طائفة بعينها، ابتليت بإثم تاريخي، حمّلها إياه النظام عندما نصّب نفسه حامياً لوجودها، ونجح في وضعها في حالة من رُهاب وجودي، ترتعب بسببه من شبح عنف قاتل سيلحق بها إن سقط هذا الحامي المزعوم؛ وأقنعها أن الحل الوحيد لعلاجها من الرهاب هذا هو أن تستبق العنف بعنف أكبر منه. على قاعدة: اقتل اليوم من قد يقتلك غداً. وهي قاعدة لا تختلف بشيء عن مبدأ الحرب الوقائية الذي يستخدمه الأمريكيون والإسرائيليون في عدوانهم على الشعوب.

وليس ثمة ما لا يبرر دعوة شيخ، والشيخ داعية سلم وتسامح وإنسانية بالضرورة، كالشيخ الخطيب، أخوةً من أبناء شعبه إلى اتخاذ موقف عقلاني ضد نظام ظالم لم يرحم شعبه، والوقوف ضده. نظام، كان

سوءُ خبرته في إدارة أزمة لها دوافعها المحقة، سبباً في موت عشرات الآلاف من السوريين، غير آبه بالطائفة التي ينتمون إليها، أو المدينة التي جاؤوا منها، أو الجنة أو الـ(جهنم) التي سينتهون إليها. نظام ألحق الخراب والدمار في البلاد وأرجعها إلى المستوى الذي كانت فيه قبل أربعين عاماً.

وليس من حرج في أن يوجه شخص يعمل في معارضة سياسية، وخاصة إن كانت له مكانة قيادية في هذه المعارضة، نداء تحريضياً إلى المواطنين، من أي انتماء قومي أو إثني أو جنسي كانوا، يدعوهم فيه إلى عصيان مدني، كُرمى لحقٍ مغتصب أو لحرّية حجبتها سلطة عنهم. فالعصيان المدني هو الشكل الأرفع والأسمى من أشكال النضال السلمي التي يمكن للمواطنين اللجوء إليها في كفاحهم من أجل استعادة ما سلب منهم من حريات أو حقوق.

القضية ليست في كل هذه الأشكال من المبادرات المواطنية المشروعة دستوراً وعرفاً. القضية هي في أن يعتمد صاحب مبادرة مدنية كهذه على رؤية جماعوية للمجتمع في الدعوة إلى مبادرته. قد تكون المسألة مسألة زلة لسان أو قلم، لكنها، رغم ذلك، تستوجب الوقوف عندها من منطلق يفرضه الالتزام بالمواطنة ولا يثيره أي موقع سياسي ما، لا ندعي الانتماء إليه أو الدفاع عنه. فالعصيان المدني «مدنيٌّ» قبل أي أمر آخر. أي أن مجال فعاليته هو المجتمع المدني الذي لا يرضى بأي صفة أخرى له تحت طائلة نفيه لذاته. وأهم سمات هذا المجتمع هي المساواة بين أعضائه أمام الدولة والقانون. والمساواة ليست في أن القانون ينفّذ على الجميع دون تمييز فحسب، وإنما المساواة في المواطنة أولاً، أي أنه لا يوجد، ولا يجوز أن يكون هناك، تمييز أصلاً على أساس «نوع» أو «انتماء» أو «ثقافة» ... المواطنين الذين سيطبّق عليهم القانون.

لذا فكل ما يحمل صفة المدنية هذه يخص كل المجتمع ولا يجوز أن يحمل تمييزاً يفاضل بين جماعاته أو أفراده. هذه المساواة المواطنية هي التي تفرض وجود (سجل مدني) يتعرف من خلاله المواطنون. أيمكننا أن نتصوّر وجود دوائر سجلات خاصة بالطوائف أو القوميات في بلد يحكمه قانون واحد مُوحّد؟ للأسف هناك من لا يستبعد هذا الاحتمال.

إن ما يخيف في دعوة «الأخوة العلويين» إلى العصيان المدني دون سائر المواطنين في المجتمع السوري الموحّد، هو أن يكون العقل الداعي إلى هذه المبادرة ينظر إلى السوريين كجماعات منغلقة على أفرادها، «تتعايش» قرب بعضها، وليس كمواطنين معنيين بشكل متساوٍ بقضايا مجتمعهم، ويعملون معاً من أجل أن «يعيشوا» مع بعض.

دمشق، 13 كانون الثاني 2012

4. تاريخ إلى غبار

«أتيت الشام»...

بهذه الجملة يدخل «مظفر النواب» في قصيدته القصيرة ذات العنوان الطويل: «عن السلطنة المتوكلية والدراويش ودخول الفرس» بقوة وثقة، بلا إضافات، أو تعشيقات، تُعين على تخيّل المشهد أو تصوّر زمانه أو مكانه. «أتيت الشام»... يدخلها كأعرابي لا حاجة له لوسيلة أو مفتاح كي يدخل إلى بيته وبيت أهله. فالشام بيت الكل، والكل فيها أهل، لذلك، ما من حرٍ ضَيّقَ مستبدٌ فسحةَ عيشه إلا وكانت الشام قبلته.

لكن الشام، المتدمشقة تيهاً وبهرجة، لا تأبه للمُهجّر الفقير في القصيدة، لذا تراه ينسلّ إلى حيث يجتمع الفقراء، يذهب إلى «خلف مخيم اليرموك»:

«صرخت بحارة الفقراء
خلف مخيم اليرموك
يدعوكم أبو ذر إلى عقد اجتماع جائع
لتدارس الأوضاع»

فهناك، خلف المخيم، في «الحجر الأسود» و«التضامن» و«القدم»

و«يلدا»... كما في المخيم نفسه وكما في العشوائيات المحيطة بالعاصمة، تحط رحال من لا يقوى على الإقامة في العاصمة.

كان اليرموكيون قد أَلِفوا ظهور دلائل تحسن الوضع الاقتصادي على مُحيا شاب عائد من العمل في دول الخليج، أو شاب جد واجتهد فنجح طبيباً أو مهندساً أو أي مهنة حرة أخرى. أما سمات الثروة الخداعة والسلطة الوهمية فكانت من اختصاص أزلام قادة، هم أزلام لقادة آخرين لا يسكنون المخيم لكنهم يسيّرون، عن بعد، أعرافه «الثورية». عدا ذلك، بقي المخيم بيت الفقراء. ليس فقراء الفلسطينيين حصراً بل فقراء كل أرض أيضاً.

في نهايات السبعينيات من القرن الماضي كان الكثير من الطلاب الوافدين إلى دمشق للدراسة في جامعتها يسكن في المخيم، حيث أجارات الغرف مقبولة، والحياة «مقدور عليها». وكانت تلك الغرف ملتقى الشباب اليساري الحالم بتغيير العالم. فيها يقرؤون كتبهم الثورية، ويقضون سهراتهم التي ما أن تخفت فيها حدة النقاشات حتى تنطلق حناجرهم بأغاني مرسيل خليفة والشيخ إمام وخليل الصفطلي. في ذاك الوقت كان بنطال «الجينز» وسترة «الفيلد»، وطبعا الكوفية الملفوفة على العنق، علامة مسجلة فارقة لأولئك الشباب. أما الشابات فكانت تميّزهن قوّة الشخصية التي يمنحها لهن تحررهن وثقافتهن.

ومع التحولات الاجتماعية والثقافية في سورية، صار اسم المخيم يشير إلى سوقه المزدحم دائماً بالناس، والذي يتخصص مدخله الشمالي بالأدوات الصحية وبكل ما يحتاجه البنّاؤون، وينفتح طرفه الجنوبي على قرى الغوطة التي تأتي منها الفلاحات كل صباح محمّلات بنتاج المزارع من الخضار ومشتقات الحليب. وارتفعت أسعار البيوت ومعها إيجارات الغرف.

غابت الرومانسية الثورية عن المخيم. وصارت المساجد هي ملتقى الشباب، وحلّت الأناشيد الدينية لفرقة «الأخوة أبو شعر» محل أغاني الثورة، وصار الشاب اليساري الثوري نادراً في المخيم مثلما صارت الفتاة التي لا تغطي رأسها بحجاب نادرة في سوقه.

وصل العنف إلى المخيم، وفي الأيام الأولى من الأسبوع الثالث من شهر كانون الأول، كان الازدحام في شوارعه وسوقه على عادته، لكنه لم يكن ازدحاماً طبيعياً. فجموع الناس كلها تسير مسرعة باتجاه واحد، نحو الجنوب. الجميع يحملون أكياساً وحقائب امتلأت حتى انتفخت. كانت الوجوه متشابهة في تعابير الخوف والحزن والألم. إنه النزوح: نزوح إلى المجهول. فالفقراء مهددون بالقتل وحاراتهم تتهيأ للدمار، وأبو ذر القصيدة لا يقول لهم أين يجتمعون لتدارس الأوضاع، ولا أين ستكون الجنازة.

في هذه الأثناء، وأنا أكتب هذا النص، يرجّ زجاج نافذتي من أصوات القذائف المنطلقة من أرضٍ ومن سماء باتجاه المخيّم. قذائف لا تفرّق نارها بين فلسطيني وسوري، ولا تميّز قدرة تدميرها بين بيت وحانوت. قذائف تدكّ المخيم الذي آوى اللاجئين الفلسطينيين، وفتح قلبه للفقراء السوريين. وتحيل تاريخاً من العيش المشترك بين الشعبين إلى غبار.

دمشق، 20 كانون الثاني 2012

5. الفساد والخيانة

أوكل يسوع المسيح إلى تلميذه يهوذا الإسخريوطي مهمة حفظ أموال الجماعة، فكان الخازن المؤتمن على الكيس المرصود لحوائج المسيح وأتباعه الدنيوية، وربما، من يدري؟ لترتيبات دينية كان المعلّم سيتدبرها لكسب المزيد من الأتباع بين الجموع الناكرة لرسالته القدسية. لكن يهوذا لم يكن جديراً بالأمانة فكان يختلس من الكيس، كما يقول الإنجيل بوضوح (يوحنا 12:6).

أصبح يهوذا الحكاية الإنجيلية نموذجاً لشكل من أشكال الفساد، والنموذج اختزال للعام في الخاص، وللجمعيّ في الفردي. والنموذج في جميع الأحوال تعبير ملموس عن ثقافة، أي عن شكل من أشكال العلاقات التي يبنيها الإنسان الفرد، أو البشر الملتحمين في جماعة، مع العالم. وقد تصبح هذه العلاقات شأناً «طبيعياً» في حياة الجماعة، فتتحوّل إلى ثقافة شاملة يألف الأفراد وجودها، بل ويتعاملون معها حتى لو كانوا لا يريدونها.

في سورية ما قبل الثورة مثلاً، لم تترك علاقات الفساد مجالاً في الدولة لم تدخله، ولا مرتبة من مرتبات الهرم الإداري لم تصل إليها. فالمسؤول الاقتصادي الأول في النظام حاز في مرحلة ما على لقب السيد

خمسة بالمئة اعتماداً على النسبة التي كان يقتطعها لنفسه من عقود الدولة. ورئيس الوزراء لِما يقرب العقدين من الزمن قُتِل (انتحاراً) تغطية على حجم الفساد المتراكم في الجهاز التنفيذي. والحصول على وظيفةٍ غير اختصاصية، حتى لو كانت وظيفة مستخدم، صار لها «سعرها» المعلوم. أما أجهزة الرقابة على احترام القوانين والنظم بدءاً من شرطة المرور وانتهاء بمراقبي المخالفات العقارية كلها تغضّ الطرف عن المخالفات إذا ما تناهى حفيف الأوراق النقدية إلى أسماعها. وثمة طرفة كان يتناقلها السوريون آنذاك تقول إن ابن شرطي عاد من المدرسة بسجله الدراسي السنوي الذي يُعلم أهله برسوبه في صفّه، فوضع الصبيّ ورقة نقدية فيه قبل أن يسلّمه لأبيه.

يقال عادة إن الدولة تبدأ بالخراب عندما يدخل الفساد قطاعي القضاء والتعليم، وبمقدور كل من يعرف سورية أن يحدّث بلا حرج عن فسادهما. بل لعل الفساد في الجهاز القضائي قد بلغ شأواً لا يمكن لأي دولة أخرى أن تضاهيه، حتى لو كانت من الدول الفاشلة.

لم يبق في سورية قطاع سالم من الفساد، بما في ذلك الجيش الذي يفترض أن يكون آخر قلاع النزاهة. ولذلك ما أن وصلت الشرارة العابرة لدول الفساد العربية سورية حتى اندلعت فيها انتفاضة الكرامة. والكرامة تعني في ما تعنيه نهاية ثقافة الفساد، إذ لا كرامة في ظل الفساد.

ومع تحوّل الانتفاضة إلى ثورة، صار القضاء على ثقافة الفساد ضرورة، لأن كل ما وضعته الثورة من أهداف يفترض ذلك، فهذه الثقافة تقوّض أسس المواطنة الصحيحة، وتئد أي إصلاح ديمقراطي، وتخرّب أي مشروع لبناء الدولة، وتحبط التنمية، وتمتهن النفوس.

غير أن الأخبار في الأسابيع الأخيرة حملت اتهامات عديدة لشخصيات تعمل في الثورة. بعضها كان من الأسماء المعروفة بانتمائها

إلى المعارضة، وبعضها أصبح من نجومها على الفضائيات وعلى منابر المؤتمرات. وتتهم الأخبار هذه الشخصيات بأنها «تلهف» من المبالغ المالية المرسلة للإغاثة أو لمساعدة الثورة نِسباً أكبر بكثير من تلك التي كان يحتجزها رموز الفساد في البلاد.

كان يهوذا في الحكاية الإنجيلية نموذجاً مجسّداً للفساد لكن الحكاية تقول في خواتمها إن يهوذا هذا حاك مع رؤوساء الكهنة اليهود مؤامرة لتسليمهم المسيح مقابل ثلاثين قطعة من الفضة في مكان بعيد عن عيون الناس، ليكتسب بذلك وصمة الخيانة بعد شَين الفساد. وكأن الحكاية تريد أن تحذرنا فتقول إن أي عضو في جماعة يقبل بسرقة مالها سيقبل حتماً بخيانتها.

دمشق، 27 كانون الثاني 2012

6. نيران ليلة رأس السنة

كانت سنة 2012 تلفظ أنفاسها الأخيرة. سكون شامل وثقيل يخيّم على دمشق. لا دويّ انفجارات ولا هدير طائرات ولا صوت اشتباكات بالسلاح الخفيف. والسوريون باتوا بالمناسبة خبراء بأصوات المقذوفات، فحتى الصِبية يخبرونك إن كان الصوت الذي غضّن عضلة من عضلات وجهك تنبّهاً أو التفاتاً نحو مصدره هو صوت طلقة مدفع أو دبابة أو صوت صاروخ مطلق من طائرة أو من راجمة، أو صوت رشاش.. كل هذه الأصوات كانت غائبة قبيل نهاية السنة. هل كان المتقاتلون قد عقدوا هدنة سرية للسماح للناس بالاحتفال برأس السنة الجديدة، كما اعتادوا على ذلك لسنوات طويلة خلت؟ هل قبعوا خلف متاريسهم، أو في مخابئهم، يستذكرون في هذا اليوم الخاص من السنة الأحباب الذين أبعدهم القتال عنهم، أو الأصحاب الذين فقدوهم؟ هل جاءت التعليمات من قادتهم بأن يتركوا في هذه الليلة للسماء سكونها، وللأرض رومانسيتها؟

فجأة، وكما لو كان مطراً مضيئاً صاعداً من الأرض صوب السماء، انطلقت نيران آلاف الأسلحة الخفيفة من بنادق ورشاشات وما شابهها. وبقيت معزوفة النيران الأوتوماتيكية هذه قرابة نصف ساعة، أطلقت خلالها مئات، آلاف، عشرات آلاف الطلقات وكأن جبهة مواجهةٍ مع

السماء قد فُتحت بتوقيت مضبوط. لكن، الحق يقال إن هذه الحفلة لم تكن عامة وإنما بقيت منحصرة في الأحياء الموالية، أو تلك البعيدة عن مراكز القيادات ولا تزال تُسمى بالأحياء الهادئة.

قد يرى كثيرون أن ليس ثمّة ما يستحق التوقف عنده في هذا الأمر. فالنار وألعابها كانت ولا تزال عنصراً أصيلاً في ثقافة الاحتفال لدى شعوب الأرض قاطبة. وإن كانت هناك تحليلات وتفسيرات عديدة لمركزية النار في الاحتفالات الجمعية عبر التاريخ، تبقى فكرة التطهّر والتطهير هي الأكثر رسوخاً في هذا المجال، وغالباً ما تقترن هذه الفكرة بسياق انقلابي ما: بداية السنة في بعض التقاويم (النيروز ...)، التحوّل من الضلالة إلى الإيمان في بعض الديانات (عيد المصابيح في كوريا احتفالاً بدخول البوذية إليها...)، التجدد والانبعاث (عيد الفصح الذي تشعل فيه الشموع بنار جديدة احتفالاً بقيامة المسيح...)، وهي جميعها سياقات يعيش فيها الإنسان لحظة انتهاءٍ من حال وانتقالٍ إلى حال جديد، ويرفقها برغبة التخلص من الأدران المحمولة من الحال البدئية والدخول بطهارة وعذرية إلى الحال الجديد. وما من شك أن الألعاب النارية المرافقة لاحتفالات رأس السنة، والتي تتباهى بها المدن عبر العالم وتتنافس للحصول على صِيغ أَفْعُلِ التفضيل فيها (الأجمل، الأكبر، الأكثر تكلفة،...) هي احتفالية موروثة من الطقوس النارية الممارسَة في تلك السياقات. وبالتالي لم تكن نيران ليلة رأس السنة سوى الشكل المحلي لتلك الألعاب النارية الاحتفالية حول العالم.

لا شك أن هذا التفسير صحيح في الجوهر، فالإنسان واحد في العالم وثقافات البشرية تتماثل في غاياتها كما تتشابه في أصولها، غير أن انحصار تلك الاحتفالات في الفضاءات التي ذكرناها يدعونا إلى الشك في التفسير، وإلى البحث عن أمر آخر. وهذا يقودنا إلى الاحتمالين

التاليين: إما أن قوات النظام قد قامت باحتفاليتها تلك في الأحياء تلك لتذكّر سكانها بأن النار الهائلة التي افتتحت بها سنتهم الجديدة ستكون لهم بالمرصاد فيما لو حاولوا أن يلتحقوا هم أيضاً بالثورة؛ وإما أن الجنود في هذه القوات قد تحرّكت فيهم ثقافاتهم الكامنة فأشعلوا السماء ناراً منذرة بانقلاب الحال الذي يسود في البلاد والانتقال إلى حال جديد يحلم به السوريون، وأنهم برصاصاتهم تلك كانوا يتطهرون من العنف الفظيع الذي ميّز أفعالهم في السنة الفائتة، ليعودوا بشراً سويين.

لا يحمل هذان الاحتمالان تفسيراً افتراضياً لما حصل تلك الليلة فقط، بل يقدّمان صورةً مسبقة لما يمكن أن تكون عليه الأوضاع في سورية في عام 2013.

3 **كانون الثاني** 2013

7. شعارات الإقصاء

عرفت سورية خلال تاريخها الحديث الممتد من جلاء الجيش الفرنسي عنها، عام 1946، حتى اليوم، أي خلال ما يقرب من سبعة عقود من الزمان، أربعة أعوام فقط من الديمقراطية (النسبية). وهي الفترة المنحصرة بين تنحّي أديب الشيشكلي عن السلطة يوم 25 شباط 1954 وتسليم مقاليد الحكم في البلاد إلى جمال عبد الناصر إثر إعلان تشكّل دولة الوحدة يوم 23 شباط 1958.

تعددت الأحزاب آنذاك، وتعددت شعاراتها التنافسية الطامحة لغواية المواطنين واكتساب أصواتهم في المعارك الانتخابية للحصول على أكبر عدد من المقاعد في البرلمان. وكانت الأحزاب واعية لكون كل حزب منها عنصراً من مجموعةٍ تشكّل الطبقة السياسية. وكانت بالتالي فكرة التعدد والاختلاف ماثلة لدى كل حزب، فلم يكن أي منها يرى نفسه حزباً أوحداً، له ما يشتهي، ولغيره أن يتحوّل إلى شبحٍ إن لم يرضَ بوظيفة التابع الذليل.

لكن الأمر تغيّر بعد انتهاء مقاليد الحكم إلى يد حزب البعث الذي بانت نواياه الإقصائية ومقاصده للتفرد في ملعب السياسة، من اليوم الأول للانقلاب العسكري الذي صار يعرف باسم ثورة آذار.

ولعل ما يعبّر أفضل تعبير عن توجه البعث الإقصائي ذاك، بيت من الشعر أطلقه شاعر السلطة «صابر فلحوط» خريف عام 1963، وكان حينها مشرفاً على برامج الإذاعة والتلفزيون الخاصة بالجيش، يقول: «أنا بعث وليمت أعداؤه عربيٌّ عربيٌّ عربي». وقد كُرّس هذا البيت شعاراً يكرّره الخطباء والمذيعون في كل مناسبة جماهيرية يستثمرها البعث ليُفهِم المواطنين أن من يعارض البعث غير جدير بحقه في الحياة.

كانت البنية الخطابية الفصيحة لهذا البيت ملائمة للمنابر والإذاعة، أما في الساحات والطرقات التي كانت تستقبل الاحتفالات البعثية الجماهيرية، وحيث لا تنسجم الفصحى مع عفوية الحياة، فقد بقي البعثيون يرددون شعاراً موروثاً من المظاهرات الاحتجاجية في أيام الديكتاتورية العسكرية في عهد الشيشكلي، ويقول: «حيّدوا نحنا البعثية حيّدوا. حزب البعث بعد الله منعبدو». وهو شعار مطابق لبيت الشعر ذاك. فإن كان البعثيون يريدون على المنابر الموت لمعارضيهم باللغة الفصحى، فهم يريدون إقصاءهم عن الشارع (الحيز العام) بالعامية.

وبعد أن ضاقت السلطة في الدولة لتنحصر في البعث، بدأت تضيق القيادة داخل البعث نفسه، عبر سلسلة الإقصاءات والتصفيات، لتؤول في النصف الأول من السبعينيات إلى «قائد أوحد» لم يعد موت أعدائه مجازاً، ولا هيمنته على الشارع حلماً. مع الأسد أصبح التفرد حقيقة واقعة لا تحتاج إلى شعر، وليس ثمة ما يمنع من تثبيتها في الدستور في مادة كان ثقلها على المجتمع والمواطنين سبباً من أسباب اندلاع انتفاضة الكرامة في آذار 2011. وبما أن أي وضع يحتاج إلى شعار يلخّصه، أطلق البعثيون شعار: «إلى الأبد إلى الأبد يا حافظ الأسد». الذي يعلن صراحة عن إقصاء السياسة وشعاراتها من الشارع السوري.

غابت شعارات البعث، وحلّت محلها شعارات الأسد. ومع بداية

الانتفاضة أكّد الأسديون على إقصائيتهم وعلى تمسّكهم بالتفرد كجزء من ميراث الأب القائد إلى ابنه القائد، فأطلقوا شعار: «اللّه، سورية، بشار وبس». وكانت هذه الـ«بس» تعني أن بشار هو وحده الرئيس، وتقطع كل محاولة تفكير برئيس غيره، مقصية، سلفاً، كل إنسان تخوّل له نفسه محاولة التمتع بحقه المطلق في السعي إلى كرسي الرئاسة. لكن هذا لم يمنع الشعب من التأكيد بلا انقطاع: «الشعب يريد إسقاط النظام»، فصار الشعب كله، لدى الأسديين، هدفاً للإقصاء، وانطلق شعارهم الجديد: «الأسد أو لا أحد» بالتزامن مع شعار: «الأسد أو نحرق البلد».

من «..وليمت أعداؤه...» إلى «..أو نحرق البلد» تاريخ من شعارات الإقصاء التي تلخّص خمسين سنة من الاستبداد. تاريخ يلفظ اليوم أنفاسه، غير مأسوف عليه.

10 **كانون الثاني** 2013

8. متعلّمو السحر

في الأبيات الأخيرة من قصيدة «متعلّم السحر» لشاعر ألمانيا الأكبر «غوته»، يصرخ الشاب متعلّم السحر مستنجداً بمعلّمه العجوز: «سيدي!...الشياطين التي أطلقتها لا أقوى على التخلص منها». بعد قرن على كتابة هذه القصيدة، وضع الموسيقار الفرنسي «بول دوكا» قصيدة سيمفونية مستوحاة من عمل غوته الأدبي. وربما يتذكر عشاق السينما المقطع الذي خصص لهذا العمل في فيلم (فانتازيا) الذي أنتجته شركة «والت ديزني» عام 1940 ولعب دور الصبي متعلّم السحر فيه الفأر الأشهر في عالم القصص المصورة وسينما التحريك: «ميكي».

بعيداً عن عوالم الأدب والموسيقا والسينما، اكتسب تعبير «متعلّم السحر» دلالة عامة تسِم كل شخص يقوم بفعل، لا يقدّر نتائجه، فتنقلب عليه. ولعل أكثر ما يطبّق هذا التعبير في عالم السياسية. فالتعريف الشائع للسياسة بأنها «فن الممكن» يجعل من المبادرة الممكنة، أو المتاحة، مركز ثقلِ العمل السياسي، ويطلق ارتياباً في حتمية بلوغ ما تهدف إليه. قد ينجح السياسي في الوصول إلى هدفه من المبادرة التي (أمكنه) إطلاقها، فيصبح ساحراً، وقد ينجح في تحقيق الهدف من مبادرته لكنه يخلق، بنجاحه هذا، أحوالاً وأوضاعاً جديدة لم تكن

بالحسبان، تعود عليه مضرّةً ووبالاً، وفي الحالتين يكون السياسي فاشلاً، ويهوي إلى مصاف متعلمي السحر.

وإذا بحثنا عن أمثلة راهنة تجسّد حالة متعلّم السحر فقد لا نجد أوضح من النظام السوري، وخاصة في إدارته للأزمة التي تمر فيها سورية اليوم. فمنذ البداية الأولى لانتفاضة الكرامة، وجد النظام نفسه في موقع الخاسر في المواجهة السلمية التي تميّزت بها المظاهرات والاعتصامات الأولى. ولذلك عمل كل ما في استطاعته لنقل المعركة من المستوى السياسي السلمي الذي الذي يريد المجتمع أن يطور نفسه من خلاله، إلى المستوى العسكري الأمني الذي يمتلك فيه النظام اليد الطولى، والذي لا تستطيع الانتفاضة، مهما تسلحت، أن تجاريه فيه. ولكي ينجح في مسعاه هذا، اعتمد النظام ثلاث سياسات متوازية ومتكاملة: 1. ممارسة العنف بشكل متصاعد ومتسارع، مما دفع الجمهور العريض من المنخرطين في الانتفاضة إلى التحوّل من الشكل السلمي للتعبير عن مطالبتهم بالحرية والتغيير إلى الشكل المسلح، الذي لم يكن في مرحلته البدئية سوى شكل مساعد لمظاهر الاحتجاج، ليصبح بعد ذلك شكلها الغالب. 2. التساهل في تسلح المجتمع. ولم يتم ذلك عبر تسليح العديد من الفئات الشعبية والمناطق الموالية فحسب، بل أيضاً من خلال غضّ الطرف عن عمليات تهريب الأسلحة عبر الحدود، من قبل مهربين معروفين، أطلق سراح غالبيتهم من السجن مع بداية الانتفاضة، مع أنهم كانوا مسجونين بتهم تتعلق بالاتّجار بالسلاح وتهريبه. 3. التركيز إعلامياً على الشكل العسكري للمواجهة عبر ممارسة سياسة المطرقة الإعلامية حتى قبل أن تظهر أي مجموعة مسلحة معارضة.

وبالنتيجة بلغ النظام هدفه في جرّ الانتفاضة إلى المواجهة العسكرية، لكنه نسي، أو تناسى، وفي الحالتين ما كان عليه أن يفعل،

مادام يعلن صباح مساء أنه يتعرض لمؤامرة كونية، أنّ من يسمح للسلاح بالنزول إلى الشارع لن يقوى على ضبّه حين يرغب في ذلك. وأن استمرار العنف سيستجلب المزيد من السلاح لمقاومته. وأن تجّار السلاح وحُماتهم يترصدون أي ثغرة تقودهم إلى سوق جديد يستهلك إنتاجهم ويؤمّن استمرار العمل في مصانعهم وزيادة تراكم ثرواتهم.

وهكذا أصبحت سورية أرض جهاد، وأصبح النظام عاجزاً عن احتواء الحل العسكري الذي أطلقه. مؤكداً مرّةً تلوَ الأخرى أنه نظام ضعيف البصر، وخفيف البصيرة، أطلق شياطين السلاح وما عاد يقوى على السيطرة عليها، تماماً كذاك الشاب في قصيدة «غوته».

22 **كانون الثاني** 2013

9. شياطين الخوف

للخوف أبواب كثيرة تفضي إلى روح الإنسان. منها باب في الزاوية الوحشية، البعيدة عن الأنف، لكل عين، ومنها باب عند كل أذن، وعلى القلب أخطر الأبواب. شبكة معقدة من الممرات والمسالك تنساب فيها تلك الرجفة السوداء التي تجتاح البدن من قمة الرأس حتى تحت الأظافر.

لأبواب الخوف شياطينها، عند كل باب يتربص واحد، دائم اليقظة لا ينام، يلتقط من الفضاء المحيط أقل نأمة، أو حركة، ليحوّلها شيفرة سحرية تفهمها الأعصاب فتنفعل لملامستها. شيطان خوف الأذن أكثرها تنبّهاً، فهو لا ينفعل لملامسة حقيقة، كصوت عواء ذئب أو صرخة آمرة أو صوت انفجار، فحسب، بل ينفعل للشائعات أيضاً. والشائعة أكذوبة قد تأتي اعتباطياً من تقدير خاطئ لحدث يقع أو لخبر يعبر سريعاً، وقد تكون مقصودة تنطلق من تلاعب شخص بأعصاب مستمعه. ومن الشائعات المقصودة ما يصدر، مع سابق الإصرار والتصميم، عن مجموعة منظمة تهدف التأثير على مزاج عام أو على السوق أو على الوضع الأمني في البلد.

شيطان خوف العين شبح، فهو لا يخفي وجوده لكن دون أن يظهر حقيقته. هو موجود ويبدو وكأنه غير موجود. وقرينة وجوده حركة

الحدقية في العين. ليس اعتباطاً أن يتزايد عارض الرأرأة الحدقية مع تزايد انتشار الجواسيس والمخبرين والعسس في المجتمع. كما ليس اعتباطياً أن يسمى هؤلاء بالعيون، «العواينية» بالعامية، لمدى ارتباطهم بشيطان خوف العين.

أما شيطان خوف القلب فهو أخطر الشياطين وأقواها. هو القادر على جعل مراهقٍ يتلعثم قبل أن ينطق بأول كلمة اعتراف بالعشق، كما هو قادر على جعل شاب مسلّح خائف يطلق النار على سيارة يرتاب منها فيقتل من فيها. هو القادر على جعل مواطن يتلعثم أمام رجل شرطة فيعترف بجرم لم يرتكبه، كما هو قادر على وضع قلب «الحجّاج» السفّاح «بين جناحي طائر» فيجعله عاجزاً عن البروز إلى «غزالة».

* * *

في دولة الاستبداد، يضع الطاغية بنية متينة لنظامه، يشكّل أعمدتها من أجهزة القمع ويتربع فوقها ليديرها حسب أهوائه. ولكي يضبط الاستبداد أنفاس المواطنين يعتمد على ثقافة الخوف. ثقافة الخوف هي الزيت الذي يسمح لمسننات نظام الاستبداد بالدوران على إيقاع رغبات الطاغية. هي الدهن المطرّي الذي يعالج الطاغية به شاربيه ليبقيا معنقصين يليقان بالصورة التي سيتناقلها إعلامه الرسمي ويسجد لها عشاقه الوالهون، الصورة التي تذيبها الأمهات في حليب أطفالهن وقاية لهم من جرثومة الحرية.

تتملك ثقافة الخوف الشياطين حارسة أبوابه، وتحوّلهم إلى مرتزقة خونة لا يقومون بعملهم في حراسة الأبواب حماية للشخص من الخوف القادم من الخارج، وإنما يصبحون دمى يتلاعب بها الخوف ويسخّرها لنقل شيفرته إلى روح الإنسان. يصبح الشياطين أُجراء عند الخوف وليسوا جنود الطليعة التي تترصده. لذا يتحوّل المواطنون في أنظمة

الاستبداد إلى كائنات رعديدة تخاف من خيالاتها. ويعمّ الخوف ليصيب الجميع، حتى الجنين في رحم أمه.

أثناء مناقشة أعقبت عرضاً خاصاً لفيلم «الطوفان»، الذي يفضح فيه المخرج عمر أميرالاي ديماغوجية الاستبداد بسخرية هادئة وعميقة، قالت سيدة من الحضور: «شعرت وأنا أشاهد الفيلم بالسرور، غير أني انتبهت إلى مشاعري فخفت، ثم أعدت لروحي قناع الجدية بعد أن اطمأننت أن أحداً لم ينتبه إلى سروري».

التقيت هذه السيدة قبل أشهر عائدة من مظاهرة في دمشق، لم يكن في زاويتي عينيها الوحشيتين أي أثر لشيطان، أما قلبها فرأيته يرقص في صدرها كحمامة طليقة الجناح. لقد شربت هذه السيدة من ترياق الحرية. الترياق الوحيد القادر على ترويض شياطين الخوف، وعلى إعادة المواطن إلى مبدئه الأول: الحرية.

دمشق، 6 كانون الثاني 2012

10. جدران الوهم

يرفع الإنسان جدراناً منذ خرج من كهفه الطبيعي ليخطو خطوته الأولى على طريق الحضارة. لكن من الجدران ما يصبح سجناً، لمن رأى فيها أسواراً تحميه، أو قبراً، لمن اعتقد أنها تمنحه أماناً كان يرتجيه. تلكم هي جدران الوهم.

من الممكن أن تختلف وظيفة الجدار حسب الزاوية التي يُنظر إليه منها. فقد يكون جداراً يمنع الخارج، الـ(هناك)، من العبور إلى الداخل، الـ(هنا)، كما يمكنه أن يكون جداراً يمنع الداخل، الـ(هنا)، من الفرار إلى الخارج، الـ(هناك). يمثّل سور الصين العظيم النموذج الأكثر إبهاراً، ويمثّل جدار الفصل العنصري النموذج الأكثر قبحاً لجدران الحالة الأولى؛ بينما يمثّل جدار برلين النموذج الأكثر شهرة، وتمثّل أسوار السجون المثال الأكثر انتشاراً لجدران الحالة الثانية. لكن في الحالتين يبقى الجدار سيفاً يقطع التواصل بين الناس، وسدّاً يغلق الفضاء.

ولئن كانت الجدران والأسوار حقيقة مادية ملموسة، وثقيلة، فثمة جدران غير مرئية، حتى نظن أنها بنات وهمٍ، لكنها لا تقل فعّالية وقوة عن جدران من الفولاذ. قد نجد هذه الجدران في الطبيعة كتلك التي يحددها برائحته الخاصة ذكر بعض أصناف الحيوانات، لتمنع اقتراب

ذكور أخرى من «بيت حريمه». غير أن المجتمعات البشرية ملأى بها. منها ما يرفعه الأفراد لمرضٍ، أو لمزاج خاص بهم، ومنها ما تنصبه الجماعات لإيمان أو عقيدة أو خوف.

التقيت مؤخراً بشابة قادمة من بلدة في وسط سورية معروفة بجمال طبيعتها، وبانفتاح أهلها واختلاطهم، رغم اختلافاتهم المذهبية بفعل انتمائهم إلى أربع طوائف. وكان في البلدة طريق يدعى (الكورنيش) يعطي صورة مصغّرة عن مجتمع البلد، فعند أصيل كل يوم دافئ، تخرج صبايا البلدة وشبابها للتنزه فيه ناشدين الحياة، غير عابئين بما يحملونه من انتماءات أو ثقافات أو أحلام. سألتُ الشابة عن أحوال الحياة في البلدة، وعن (المشوار) على (الكورنيش)، فنظرت إلي بحزن وقالت: منذ سنة وأكثر ما عدنا نذهب هناك. سألتها: لماذا؟ قالت: لأنه يقع في حيّهم فنحن نتجنّب الذهاب عندهم، وهم لا يأتون عندنا. طبعاً الضمائر المتصلة (هم) و(نا) تعود إلى الطائفتين الكبريين في البلدة.

ومن مدينة ساحلية تنقسم أحياؤها إلى مجموعة شمالية يقطنها بشكل خاص القادمون من القرى الجبلية الغربية، ومجموعة جنوبية يقطنها بشكل خاص أهل المدينة الأصليون، هتف لي صديق ليخبرني أن البحر صار بحرين، وأن (الكورنيش البحري) انقسم إلى كورنيشين، كل قسم يتبع مجموعة أحيائه، أي لأتباع طائفة. بل وأضاف أن السوق التاريخي الموجود في المدينة القديمة لم يعد على حيويته الممتدة إلى قرون خلت، لأن الوافدين من القرى فتحوا سوقاً خاصاً بهم في أحيائهم، وأن عدداً من المقاهي والمطاعم ظهرت في شمال المدينة تستقبل الزبائن الذين هجروا الأماكن العامة في المدينة القديمة، لأنها تقع في أحياء (الآخرين).

لا جدران في هذين المثالين سوى جدران الوهم التي يرفعها الخوف.

الخوف من الآخر. وهو خوف استنبته فشل النظام في إدارة التنوّع في البلاد، ورعته خياراته السيئة في إدارة الأزمة، وجاءت القوى الجهادية الإسلامية وخطاباتها التكفيرية لتزيد في الطين بلّة، ولتنضج الخوف وتثمره.

لا يمر يوم إلا وتنتشر الأخبار عن إجراء جديد، أو مجزرة جديدة، أو غزوة جديدة تدفع الناس إلى وضع حجر جديد في جدران الخوف، فيرفعونها أكثر فأكثر، عساها تحميهم من خطر يتصوّرون قدومه. لكنهم بفعلهم هذا يسجنون أنفسهم أيضاً في (غيتويات) محكومة بالاختناق والموت. ففي بلاد شرق المتوسط، وبسبب التاريخ السحيق للاختلاف والتنوع والتشابك، لا يمكن للمكونات المجتمعية البقاء إلا إذا انفتحت على بعضها، وكل محاولة لخنق الآخر هي ليست في الحقيقة سوى عملية انتحار.

25 **كانون الثاني** 2013

11. الوحش فينا

المشهد الأول:

رجلان يحتلان كرسيين من المقعد العريض في مؤخّر حافلة متجهة من مدينة ساحلية إلى دمشق. الرجلان في العقد الثالث، أو الرابع، من العمر. ثيابهما مدنية، عملية، لا تنم عن سعة حال، ولا عن فقر. يحمل وجهاهما تعابير متناقضة ومتداخلة: شيء من الفخر المبالغ به، بل ربما من الغطرسة، شيء من العنفوان، شيء من الوحشية، وكثير من الخوف المقنّع.

الرجلان يلهوان بهاتفيهما المحمولين، يقلّبان صوراً محفوظة فيهما، ويتبادلانهما ليرى كل منهما ما يظهره الآخر له. يتكلمان بصوت عالٍ يُسمع حتى ثلاثة صفوف من المقاعد الخلفية.

ـ انظر! هذا من الاقتحام الأخير لقرية.... هل ترى جثث «الخنازير» الخمس هذه. لقد قتلتها بيدي. وانظر في هذه الصورة كيف أشعل بها النار... وانظر أيضاً ما بقي منها.... فحم... كتلة فحم. والله الذي لا إله إلا هو، لولا العميد الذي أمرنا بالتوقف، لحرقت كل أهل القرية بهذا الشكل.

ـ خُذْ !، قلِّبْ في هذه الصور... تجد ثلاث عشرة صورة لقحبات

اغتصبتهن حتى الآن. لقد نذرت أن يصلن إلى الخمسين، ربي لا تموّتني قبل أن أفي بنذري.

* * *

المشهد الثاني:

في بيت في ضاحية من ضواحي العاصمة. بضعة رجال يشربون الشاي جلوساً على الأرض. يشكّل الجميع دائرة تناثر حولها بعض الأطفال. وهناك بعض النساء المنزويات في ركن من الغرفة يصغين بانتباه. البيت، رغم ضيقه، يستضيف أسرتين نازحتين.

ثمة بين الجالسين زائر من أهل البلدة يلقّب بأبي أحمد، كان سجيناً بتهمة تهريب قبل سنتين، وخرج بعد أن شمله العفو الرئاسي.

يقول أبو أحمد: لقد قمنا بحفر حفرٍ في البساتين. كلما أمسكنا بواحد منهم نذبحه ذبح النعاج ونلقيه في الحفرة لتأتي الوحوش أو الكلاب الشاردة، وتأكله. كان هذا في البداية، لأننا كنا رحماء معهم. أما اليوم فقسماً بالله يا شباب! نشدّ أيديهم خلف ظهرهم، ونقيّدهم، ونرميهم في الحفرة لتأكلهم الكلاب وهم أحياء. منذ يومين مرّ أخ لنا قرب حفرةٍ عند الفجر، وسمع أحدهم يصرخ ألماً، وقد نهشته الكلاب ولم تقضِ عليه. اقترب منه، فشرع الآخر يستغيث، وأخذت الرأفة بقلب أخينا. فأهال التراب فوقه حتى امتلأت الحفرة. ثم قرأ الفاتحة على روحه وتابع مسيره.

* * *

لا يمضي يوم دون أن تسمع روايات من هذا النوع يتناقلها الناس، بانبهار لدى بعضهم، لكن باشمئزاز وقرف لدى الغالبية. لكن التساؤلات ذاتها تنطلق لدى الجميع: أين كنا وأين صرنا؟ كيف أصبحنا هكذا؟ من أين ظهر هذا الوحش؟

يطرح السوريون أسئلتهم وكأن أولئك المروي عنهم، من طبيعة أخرى غير طبيعة هؤلاء الراوين، أو المنصتين للرواية. فالوحش «منهم» وليس منا. وهذه الفكرة ليست حكراً على السوريين، بل منتشرة في البشرية جمعاء.

الوحش كائن له معالمه الخاصة وله عالمه الخاص. قد يشبه الإنسان أحياناً لكنه غالباً ما يكون ذا سحنة قميئة، ويعيش في عوالم غير تلك التي اعتادها الإنسان. الوحش يحتجب عن الأعين، أو يختفي أغلب الأوقات، إذ ليس بمقدوره احتمال عالم البشر ذوي العقل والإدراك، والعاجزين عن فهم طبيعة الوحوش. الوحوش تقتل، وتقطّع، وتغتصب، وتأكل الأطفال، وتحرق، وتدمّر، وتشرب الدماء. إنها تنتمي إلى عالم خيالي لم يعرف الحضارة ولم يعش فيه إنسان. هذا العالم نراه ربما في السينما أو نسمع عنه في حكايات الجدات.

الفن والأدب والحضارة والثقافة تجعل الوحش نقيضاً للإنسان، والوحشية نقيضاً للإنسانية. إنها تنظّف الإنسان، تطهّره، تجعله كائناً يشبه الملائكة. فإن حاد عن صورته البرّاقة هذه، طردته من فردوسها الخيالي ورمته في خانة الوحوش.

ينصت السوريون اليوم إلى روايات العنف المتناثرة في فضاء بلادهم ويتساءلون: من أين جاءنا هذا الوحش؟ أم تراه كان فينا؟!

2 **شباط** 2013

12. السيدة مريم

إلى ذكرى أيهم غزّول

جلست السيدة مريم، أم غسان، في صدر الغرفة تتلقى العزاء بابنها الشهيد ذي الستة وعشرين ربيعاً. البيت لشقيقها المعارض الذي ترك البلاد تحت تهديد الاعتقال، وقد نزحت إليه منذ اشتد القصف على حيّها وانهار العديد من عماراته. كان ابنها الطبيب آخر العنقود ويفصله عن شقيقه عقد وسنتين. والقصة أن العائلة كلها، رغم ابتعاد السنين، أرادت طفلة تكون مهوى حنان أبيها وسَكينة لأخوتها الذكور. لكن احتمالات الحياة لم تأت كما اشتهت العائلة. وكان «أيهم».

يدهشك في ما تراه له من صورٍ، أو في ما تحتفظ عنه في مخيّلتك من ذكريات، دوامُ ابتسامته. كأن الحزن لم يدلف يوماً إلى روحه، أو كأن هاتفاً قدرياً كان ينبئه بكم سيترك من أسى في العالم فطالبه بالتعويض مُقدّماً بدوام الابتسام.

زارني بعيد خروجه من سجنه الأول وأثار التعذيب لا تزال ماثلة على مشيته، وفي بطء حركته. وقتها، أحرجتْ ابتسامته غضبي، وأخجلتْ سكينته انفعالي. قال لي رفيقه: ستة وثمانون يوماً وهو كما ترى، كأنه

ليس في سجن. فكّرت: هُوَذا أخيراً من يدحض أسطورة «الثعالبي» حين قال: «إن اللّه لمّا عجن طينة آدم أمطر عليها سحائب الهموم والحزن أربعين سنة ثم أمطر عليها السرور والفرح سنة واحدة فلذلك صار الهمّ أكثر من الفرح والحزن أكثر من السرور»[1]، وغبطته، ليس لصعوبة إنكار الأسطورة وإنما لقدرته على الاحتفاظ بابتسامه، وعلى المكابرة أمام الأحزان. وتشوّقت لأعرف سر تلك المكابرة وأكشف مصدرها.

في بيت العزاء جلست السيدة مريم كسنديانة جبلية، تعصف الريح بأوراقها اليانعة وتعجز عن هز الأغصان. نساء ورجال، شباب وصبايا يدخلون ويخرجون، تستقبلهم بوجه صافٍ، صامتٍ، صابر يداري روحاً كليمة خشية أن تفيض بحزنها فتغرق الحاضرين.

أي بلاغة تقدر على نقل حزنِ أمٍّ ثكلى بابنها؟ تباً للّغة ما أضعفها أمام «دمعة أجمل الأمهات ووردتها».

شباب وشابات ملؤوا المكان، ذهبوا هناك آملين أن يمنح تواجدُهم أمَ رفيقهم الشهيد القوة على تحمّل المصاب، فأكرمتهم بعنفوانها ومنحتهم نفحات من عمق إنسانيتها. قالت شابة اختارت العمل الميداني سبيلاً لثورتها : «كنت بحاجة لأن أراك قبل نزوحي إلى الميدان. من كان يريد جرعة معنويات وصلابة وتماسك، فليمسك بيد أمنا، والدة أيهم». وقالت أختها الناشطة في الإغاثة: «خجلنا من دموعنا. قالت لنا: يجب أن تكملوا ما بدأتم به، ليس من أجله بل من أجلكم». وقالت ثالثة: «ابتسامة أم أيهم اليوم جعلتني أهزم إحباطي، وأحيت فيّ التفاؤل»[2].

هنا يكمن سر الابتسامة الدائمة إذن، إنها ابتسامة موروثة من

1- ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار الفكر (بدون ذكر لتاريخ الطباعة أو لمكانها)، ص41.

2- من صفحات متفرقة على موقع التواصل الاجتماعي.

هذه المرأة التي تعرف أنها تهزّ العالم بيسارها، ليس بالعنف والدعوة إلى القتل والانتقام، بل بفيض الإنسانية وحكمة الألم. ألم الأمهات، كل الأمهات السوريات اللواتي يفقدن أولادهن في مقتلة يتناسل فيها العنف من العنف، والجريمة من الجريمة.

تصدر كل يوم إحصاءات جديدة تتزايد فيها أرقام عدّاد الخسائر البشرية، إحصاءات عن عدد الشهداء: شهداء الثورة من جهة، وشهداء الجيش النظامي من جهة أخرى؛ عدد القتلى من النساء ومن الأطفال، عدد المفقودين، عدد المعتقلين، عدد الجرحى... وإذا جمعنا الأعداد في كل هذه الإحصاءات وصلنا إلى محصلة تشير إلى رقم واحد: عدد الأمهات الكليمات. قد تنتهي الأزمة المسلحة بانتصار أحد الأطراف المتحاربة، لكن الخاسر في جميع الأحوال هي الأم السورية، هي السيدة مريم.

9 **شباط** 2013

13. ثمة رأس كان هنا

قد ينطق بهذه الجملة باحث في علم الآثار يعاين تمثالاً قديماً ضاع رأسه في حِدثان الدهر، فلا تحيل سوى إلى حقيقة أن التمثال لم يجد المنقبون رأسه. غير أن سياقاً آخر، كالسياق السوري الراهن، يحمّل الجملة ذاتها دلالات متعددة.

في صورة أولى نرى ثلاثة رجال مصابون بالدهشة، يرفع أحدهم بين يديه إلى مستوى نظره جسداً لطفلة ترتدي ثوباً أزرق. كل ما في الصورة عادي، لولا أن جسد الطفلة بلا رأس. كان له رأس، لكن قذيفة أطلقها عنصر من القوى المدافعة عن النظام، عقاباً لمواطني بلدة «كفر عويد»، محتْ الرأس وتركت أشلاء من لحم ودم تشير إلى أنه كان هنا.

الصورة ليست عادية. وليست فريدة أو مثيرة. إنها لا تحتمل أي توصيف لأنها نفي الصورة، اللا صورة.

منطقياً، وُجدت الصور كدليل على وجود موضوعها. وإن أظهَرَت فإنما تُظهر شيئاً موجوداً، موضوعاً، يبثّر نظرات المشاهدين، يجمعها في نقطة محرق ويردّها إدراكاً ينطبع في العقل، ويطلق آليات معيّنة من آليات التفكير والتذكر والتصنيف...

لكن صورتنا هذه نفي للصورة لأنها تجهد لإظهار الغائب، اللا موجود، الذي كان موجوداً، فتبئّر نظرات المشاهدين في الخواء.

أمام صورة طفلة «كفر عويد» تحيل جملة «ثمة رأس كان هنا» إلى شوهة استثنائية لم يسبق لها أن سجّلت في مصنف التوحّش البشري.

في صورة ثانية وثالثة وعاشرة... وتاسعة وتسعين، نرى جثثاً ملقاة على الأرض. نقرأ في النص المكتوب المرافق، أو نسمع في الشريط المصاحب، أن بعض هذه الجثث كانت قد حُزّت عنها رؤوسها. تختلف نبرات النصوص المقروءة أو المسموعة، بعضها يستثمر الموضوع لإظهار وحشية المتهم بإتيان هذه الفعلة النكراء، والذي يكون مرة «النظام الوحشي»، ومرة أخرى «العصابات الإرهابية». وبعض النبرات يستثمر الصورة لتجييش الأنصار، ورفع معنوياتهم فتصبح الجثث مرةً «لفطايس جرى دعسها»، وتصبح مرة أخرى «لعملاء جرت تصفيتهم». وقد حدث أكثر من مرة أن جمعت الصورة ذاتها بين كل هذه المواقف مجتمعة.

في صورة أخرى، من سياق آخر، نرى تمثالاً نصفياً للشاعر الفيلسوف «أبي العلاء المعري»، في بلدته المعرة، وقد أطيح برأسه. ونقرأ على جانب الصورة أن جماعة قامت بقطع رأس التمثال لأن صاحبه كان زنديقاً، بينما نقرأ في مكان آخر، وبخصوص الصورة ذاتها، أن جماعة قطعت رأس التمثال لأنه صنم، ويجب أن ينتهي، في سورية، زمن الأصنام.

شتان ما بين وحشية حز رأس آدمي، خاصةً إن كان طفلاً، وقطع رأس تمثال. بل لا تجوز المقارنة بالمطلق بين الفعلين، (حتى لو كان قطع رأس التمثال فعلاً مجازياً يرمز إلى حزّ رأس الزنادقة، والملحدين، والماأدريين، والعلمانيين...). لكن ثمة قاسم مشترك بينهما، لا يمكننا إنكار وجوده، إنه الهمجية بكل ما تعنيه من وحشية ودموية وقساوة وجهل.

مثّلت عملية قطع الرأس، في بعض الحضارات، سمة من سمات التطور الأخلاقي لأنها اعتُبرت عملية إعدام رحيم، مقارنةً مع الموت البطيء الذي كان يسببه الإعدام شنقاً. بل كانت بعض السلطات تخصصه لإعدام النبلاء، في حين تخصص الشنق لإعدام الرعاع. وقد بقيت «المقصلة» وسيلة إعدام المدنيين الوحيدة في فرنسا حتى إلغاء حكم الإعدام نهائياً عام 1981.

أما في هذه المنطقة من العالم فيعجّ التاريخ بحكايات قطع الرأس بدءاً من يوحنا المعمدان والقديس بولس وشهداء كربلاء وانتقامات العباسيين حتى أحكام الإعدام في السعودية.

ولم تعرف سورية، على ما يبدو، هذه العملية البربرية، أقلّه خلال القرن الماضي، لكن ثمة رؤوس كثيرة تسقط هذه الأيام وثمة من يصعد المنابر حاملاً سيفاً ليسترجع قول الحجاج: إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، متوعداً بحفلات قطع رؤوس جماعية... أتراها فقدت سورية رأسها، وبات طبيعياً أن نقول إذا ما نظرنا إلى صورتها: ثمة رأس كان هنا!

16 **شباط** 2013

14. أشياء السيد «س» التافهة

إلى ذكرى عمر عزيز

السيد «س» إنسان عادي يعيش في سورية. يقولون عنه إنه مثقف. هو لا يدّعي هذه القيمة، الآخرون يلبسونه إياها. وليس كل رداء بجميل، أو على الأقل، حسب الزاوية التي ترى منها الأشياء.

مثقف! تكاد الصفة أن تصبح سُبّةً أو شتيمة، أو وصمة عار. المثقفون يفكّرون. وهي لعمري مصيبة وكارثة في زمن يهيمن عليه أولئك الذين توَحّد فكرهم بسيفهم. زمن الأبطال.

الأبطال في الثورات من جوهر واحد. صفتهم النووية واحدة: مُلكية الحقيقة. أما المثقف فهو حشرة متكوّرة تحت مظلة عقلها. هو كائن هلامي، لأنه يؤمن بنسبية الحقيقة، بينما الحقيقة واضحة وضوح الأنا. ومن يملك الحقيقة يضرب بسيفها. ومن ليس معي في حقيقتي هو بالضرورة ضدي، وسيفي سيعالج في هيجان الثورة صداع رأسه.

للأبطال في الثورات، وإن اتحدوا في الجوهر، أشكال مختلفة.

هم أصحاب العضلات المفتولة التي ترتجف الغلمان، وتخفق قلوب العذارى، لمرآها. والعضلات، أيقونة القوة، بطاقة هويةٍ تُعرَض عن بُعد،

لكي تعطي لعُصارة الخوف متسعاً من الوقت للتمدد في جسد الآخر، ولنشر القشعريرة في خلاياه. والآخر هو الإنسان العادي، المواطن المقهور، اللابطل. والوضعية الأفضل للعرض أو الاستعراض تكون مع سلاح ما، لا يهمّ نوعه أو حجمه. قد يكون سكيناً أو دبابة، المهم أن يظهر البطل مع سلاحه في الصورة.

هم أصحاب اللحى الطويلة التي تمنح لمنظرهم سلطة على عبيد الله الفقراء. هؤلاء الذين يرون في اللحى كواسح ألغام الخطايا التي يزيّنها لهم الشيطان، وفاتحة دروبهم إلى الحوريات الموعودات. فيصبح ما يقوله الملتحون هو الدستور، وتتوقف الحقيقة عن أن تكون في ما يقوله هؤلاء ليصبح ما يقولونه هو الحقيقة.

الأبطال هم، أيضاً، مثقفون محترفون، تتعاظم أنواتهم ليصبح ما يقولونه نبراس الهدى للضعفاء الحائرين في فهم تعقيدات الأزمة التي تعيشها البلد. والويل لأمثال السيد «س»، حتى لو كان يشاركهم بصفة «مثقف» الملعونة، إن وطئ حقل سلطتهم المعنوية ليدلو بدلوه في أمر من أمور الثورة. فقد يرى الأمر بحساسيته الخاصة التي لا تتفق تماماً مع ظل حساسيتهم على اللغة فيصبح مارقاً، متخاذلاً، مجهّلاً... إلى ما هنالك من صفات تحمل أكثر بكثير مما تقول.

هم أصحاب الأصوات العالية على الفضائيات، الذين يقصفون المواطنين بقنابل صوتية وبنصائح تكتيكية، وبتحليلات مرعبة، وبرذاذ تفتفاتهم المتطاير عبر الأثير.

السيد «س» ليس بطلاً. بل هو يعاني من حالة نفسية تجعله ينكمش أمام صور الأبطال من كل الأشكال، يتقوقع على نفسه ويتابع أشياءه التافهة ومنها: مساعدة عائلة منكوبة تبحث عن جثة ابنها الشهيد في مشرحة مشفى؛ إيصال صندوقي حليب لأطفال مهجرين في حي بعيد؛

إيصال مساعدة مالية لسيدة وجدت نفسها فجأة جارة لعدة عائلات مهجّرة؛ مساعدة مجموعة من الشباب يريدون تنظيم نشاطهم المدني ولا يعرفون كيف؛ كتابة ورقة توصية لطالب يريد أن يتابع دراسته في الخارج؛ إنهاء دراسة علمية لمركز أبحاث يستشيره كخبير؛ البحث عن إمكانية الحصول على منحة لطالبة تستحق السفر للدراسة لكن لا يسعفها الحال؛ الاستعداد للقاء شخص من عائلة شاب استشهد لإبلاغه بالخبر الفظيع؛ مراجعة نص كتبه صديق ويخشى ألا يكون قد أحسن التعبير عن أفكاره؛ كتابة مقدمة لمجموعة قصصية طلبها منه مبدع شاب؛ محاولة مساعدة ناشط في الحصول على تأشيرة سفر من سفارة ما؛ لقاء بعض الشباب المحبطين ليحاول بعث الأمل فيهم وبثورتهم من جديد؛ لقاء مجموعة من الشباب يطالبونه بالإجابة على تساؤلات تؤرّقهم...

السيد «س» هو اللا بطل... أيامه مليئة بالأشياء التافهة، وفي ما يتبقى له من وقت، يحاول أن ينهي نصه الأسبوعي للجريدة التي تستكتبه قبل أن يعتقله جهاز ما أو تنفجر به سيارة ملغومة أو تنال منه رصاصة قادمة من عالم الغيب.

23 **شباط** 2013

15. المدرسة السورية، إلى أين؟!

«المدرسة هي مصنع المواطنة»، هكذا تقول كل أدبيات المواطنة، حتى تلك التي تنتقد ما تسميه «المفهوم التقليدي» للمواطنة، وتطالب بالاعتراف بالحقوق الثقافية للجماعات ضمن الوحدة السياسية للبلد. ولا يختلف اثنان بأن المدرسة السورية لم تكن نموذجاً للمدرسة المواطنية خلال العقود الماضية. ويعود ذاك إلى سببين أساسيين: الأول هو الفكر القومجي الذي يرى في المدرسة جهازاً تعبوياً، وظيفته تنشئة أجيال مشبعة بالفكر الأحادي الذي نصّب نفسه قائداً للدولة والمجتمع؛ الثاني، وهو منبثق عن الأول، البرامج التعليمية التي لم يتم وضعها ضمن منظور يتطلع إلى تربية المواطن وصناعته، فعمّقت من التصدعات الطبيعية في المجتمع، وأنشأت أجيالاً من السوريين غير المدركين لحقيقة الاختلاف التي يتصف بها مجتمعهم. وهذا ما كان من نتائجه تشكّل صور نمطية عن الآخر، تُلقى عليه من خارج كينونته، ولا تَفهَمه من داخل تشكّلِه. هل يعرف السوريون العربُ السوريين الكردَ حقاً؟ هل يعرف المسلمون السوريون المسيحيين السوريين حقاً؟ بل حتى داخل الإسلام ذاته، هل يعرف أهل طائفةٍ الخصائص المميزة للطوائف الأخرى؟

عملت المدرسة السورية على طمس الاختلافات المتشكّلة تاريخياً

وثقافياً، وحين كانت غيرَ قادرة على طمسها رفعت الجدران بينها. وهكذا نشأت أجيال لا يعرف أولادها الآخرين، يجهلونهم، والإنسان عدوٌ لما يجهل. وقد شكّل هذا الجهل، أرضية خصبة للاستقطاب الطائفي الذي دفع إليه النظام كواحدةٍ من أدوات حلّه الأمني العسكري من جهة، وللتشدد القومي لدى المكوّنات القومية المغبونة حقوقها من جهة أخرى.

على المستوى المادي العمراني، أدّى الحل الأمني إلى تدمير عدد هائل من المدارس وصل إلى أربعة آلاف مدرسة، حسب بعض التقديرات، ناهيك عن أن عدداً من المدارس بات يستخدم كمراكز إيواء للعائلات المهجّرة، وأن عدداً آخر لا تمكن الاستفادة منه لصعوبة وصول التلاميذ والأساتذة إليه. حتى في الأماكن الآمنة نسبياً كالعاصمة وضواحيها، يتردد الأهالي كثيراً في إرسال أولادهم إلى المدرسة خوفاً عليهم من مفاجآت القصف العشوائي.

لا مجال للمجادلة بأن هذه الخسارة الجسيمة في البنية التحتية للمؤسسات التعليمية، أضف إلى ذلك تآكل الدولة ومؤسساتها، وبالدرجة الأولى المؤسسات الهشّة كالمؤسسة التعليمية، في مساحات واسعة من البلاد، بعد أن انهارت فيها آليات الضبط والنظام، تخلق مشاكل جديدة في مجال التعليم لن تستطيع سورية تجنّب مفاعيلها السيئة. مشكلة إعادة إعمار البنية التحتية بالدرجة الأولى؛ ومشكلة «الفجوة التعليمية» ثانياً، ليس بين المهارات ومتطلبات سوق العمل فقط وإنما في العدالة التعليمية بين الجنسين، وبين مختلف المناطق، إذ أن ثمة مناطق كثيرة لم ينل تلاميذها أي قسط من التعليم خلال سنتين...

لكن يجب ألا يمنع ظهور هذه المشاكل الخطيرة من طرح مسألة التربية على المواطنة في المدرسة على بساط البحث، واعتبارها قضية لا تقلّ في جديتها عن المشاكل الأخرى، ما دام الثوار مقتنعين بأن دولة المدنية والمواطنة لا تزال هدفاً للثورة.

لقد انتشرت مؤخراً أخبار متسربة من مخيمات اللاجئين السوريين في تركيا مفادها أن ثمة صفوفاً افتتحت داخل المخيمات لتعليم الأولاد. لكن تعليمَ المناهج السورية ممنوعٌ فيها، وإنما يتم تعليم مادتين فقط في تلك الصفوف الإغاثية: اللغة التركية والتربية الدينية.

وبات من المعروف أن بعض المناطق ذات الأغلبية الكردية افتتحت مدارس تعلّم الأطفال منهجاً متكاملاً، منقولاً من مدارس كردستان العراق، باللغة الكردية.

وتجوب فضاء وسائل الاتصال الاجتماعية صورة من ريف إدلب لتلاميذ صغار في غرفة تخدم كصف مدرسة. في طرف من الغرفة تلاميذ يقرؤون، وفي الطرف الآخر يقف تلاميذ يؤدون الصلاة.

وسنرى الكثير من الأمثلة الأخرى التي إن دلت على شيء فإنما تدل على إعادة إنتاج المدرسة التعبوية ليس على مستوى الوطن ككل هذه المرة وإنما على مستوى المكونات المجتمعية الدينية والقومية. مما يعني أكثر فأكثر من التصدعات وأقل فأقل من المواطنة.

لذلك وجب التساؤل: المدرسة السورية، إلى أين؟!

5 آذار 2013

16. التمثال والذاكرة الجمعية

تمثّل المشيدات مطرحاً من أكثر مطارح الذاكرة الجمعية رسوخاً. وسواء أكانت تلك المشيدات دينية أم تاريخية أم ثقافية أم سياسية، وسواء أكانت تحظى بهوى في نفوس غالبية الأفراد، أم بعضهم فقط، يصعب على المنتمين إلى الجماعة، التي تحتلّ المشيدات حيزاً من فضائها المشترك، أن يحرّروا أذهانهم من ذكراها.

وتشكّل التماثيل والنصب التي تقام في الأماكن العامة، من ساحات وحدائق وطرقات، نموذجاً لما يمكن أن تحظى به المشيدات من حضور وتأثير في حياة الجماعة، وفي شكل العلاقة التي يبنيها الناس مع تاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم. حين تجتمع الحشود في ساحة الجمهورية في باريس للاحتفال بمناسبة سياسية ما فلأن ثمّة رابطة وجدانية تربطها برمز «ماريان» التي يتوسط تمثالها الساحة. وكذلك عندما يقوم جمهور بهدم تمثالٍ لحاكمهم فهم يقلبون، رمزياً، صفحة من تاريخهم.

يتبع انتشار التماثيل والنصب التذكارية في فضاء الجماعة، كما يتبع عددها، وكثافتها، وخارطة توزعها، طبيعة السلطة المسؤولة عن تنظيم أمور الجماعة، وأمور حياتها. فهي تعبّر عن حاجة السلطة لوجود ذاكرة جمعية تؤلِف بين الناس، وتعزز انتماءهم إلى الجماعة، من خلال

تذكيرهم الدائم بالمشترك بينهم. أما في حال سلطة الاستبداد فهي تعبّر عن رغبة السلطان في اصطناع ذاكرة جمعية مستلَبة، مسكونة بصورته دون أي شيء آخر. في ختام جولة التحقيق مع «وينستون»، الشخصية الأساسية في رواية «1984»، يقول الجلاد أوبريان: «لن يكون بمقدورك بعد اليوم أن تعرف المشاعر الإنسانية العادية. كل ما فيك سيفنى. [...]. ستكون خاوياً. سنعصرك حتى تصبح خاوياً ثم نملؤك من ذاتنا». ولبلوغ ذاك الهدف يجب إغراق المواطن بحضور السلطان، ليصبح حاضراً حتى في ذاته.

هكذا تصبح تماثيل السلطان، والجداريات التي تتضمن صورته، عنصراً بصرياً طاغياً في الفضاء العام. ويغدو من المستحيل أن تجد مدينة كبيرة، أو بلدة صغيرة، لا تفرد أفسح ساحاتها لها. ويصبح من المستحيل أن تجد صرحاً حكومياً على طول البلاد وعرضها لا يُفرد في مدخله، أو في ردهة استقباله، تمثالاً نصفياً أو بالقامة الكاملة للسلطان، الذي يتحوّل في أنظمة الاستبداد إلى «قائد خالد». ولعله ليس من المصادفة أن برامج تعليم اللغات، في وزارة التربية السورية على سبيل المثال، تعتمد لترجمة صفة «الخالد» في العبارات المنقولة من خطابات الرئيس كلمة (omniprésent) التي تعني حرفياً «كليّ الوجود»، أو «الموجود في كل مكان». وكأن الصفة العربية التي ترخي بظل القائد على الزمان تستكمِل في الصفة الفرنسية هيمنته على المكان لتحقق طموح الألوهية على إحداثيات الوجود.

للنصب والتماثيل والجداريات تأثير نفسي مباشر على المواطنين لأنها تحوّل فكرة الوجود الكلّي للسلطان إلى أمر ماثل في الواقع. تنقلها من مستوى المتخيّل إلى مستوى المحسوس المادي. وعندما تملأ تماثيل السلطان ونصبه الفضاء المحيط بالمواطن، ترتسم أيضاً كصورة مهيمنة على فضائه الداخلي، تملؤه، تحتل خياله، وتصيب روحه بالتخمة،

فتحيله إلى إنسان مسكون بشخص السلطان، ويصبح جاهزاً ليحقق النظام سيطرته الخفيّة عليه.

لم تكن عملية إسقاط التمثال في الرقة إلا عملية أخرى، ولن تكون الأخيرة، في سلسلة عمليات مشابهة تقوم بها الجموع الثائرة منذ الأيام الأولى لاندلاع انتفاضة الكرامة في سورية. مما دفع عدداً من البلديات إلى رفع التماثيل وركنها في مواضع آمنة. ولم تكن الجموع في دأبها هذا تفرغ شحنة حقدها على النظام الذي ثارت ضده فحسب، بل كانت أيضاً تقوم بعملية «تهوية» لذاكرتها الجمعية. فالذاكرة مختنقة بصورة السلطان، وفي الحياة صور كثيرة أخرى، من حق الناس أن يتعلقوا بها ويركنوا إليها.

9 آذار 2013

17. تحوّلات في ثقافة الخوف

سنتا الثورة هما سنتان من الحَراك الاجتماعي اليومي المستمر. حَراك هادر، كأنهار الربيع، لا يهدأ ماؤه ليستريح، بل ليستجمع قواه لدفق أقوى. لقد أتاح طول مدة الحراك تشكّل منظومات مختلفة من العلاقات بين الناس، ترسّخت في أكثر من مكان، وتحوّلت إلى قوى لا مادية، فاعلة ومؤثّرة على جماعات دون أخرى، أو على المجتمع ككل. أي، بمعنى آخر، إلى ثقافات.

بعض هذه الثقافات كان راسخاً في المجتمع، وبعضها الآخر، كان كامناً فيه ينتظر انثقاب الغشاء الساتر لينفجر وينثر مخزونه، وبعضها الثالث وجد في الحراك، وديناميكياته فرصة لينغرس في تربة تبيّن أنها أكثر استعداداً لتلقيه، مما كان يُظنُّ أو يشتهى.

في النمط الأول من هذه الثقافات تبرز ثقافة الخوف كثقافة راسخة، في حياة السوريين، منذ عقود طويلة. ثقافة الخوف هي الملاط الذي تستخدمه أجهزة القمع لتثبيت العلاقات بين العناصر في بنية النظام الاستبدادي، وتأبيدها كشرط من شروط وجوده واستدامته.

يعرف القاصي والداني أن الخوف بات ثقافة حقيقية لها قواعدها السارية في الحياة اليومية، وفي شكل التعامل مع السلطة ورموزها

وممثليها. وبلغت هذه الثقافة مستوى الهيمنة بفعل آليات التسلط والرقابة والوشاية والتعسف...إلخ. التي ارتبطت جميعها بأجهزة القمع السلطوية القوية العديدة. لقد استبطن المواطنون الخوف حتى سكن في وجدان كل مواطن منهم شرطيٌ غير مرئي، يهديه إلى درب الستر والسلامة.

مع ربيع دمشق، بدأت تباشير خلخلة تلك الثقافة مع ظهور المنتديات، ومع البيانات وأخطرها، لأسبقيته على غيره، بيان الـ99. وحاولت الأجهزة استعادة الهيمنة، لكن الوتد كان قد انغرس، وساهمت وسائل الاتصال الجديدة بتحويل أشكال عديدة من آليات الرقابة إلى أضحوكة، لكن الخوف بقي، رغم ذلك، صفة مستقرة في المجتمع. إلى أن انطلق الحراك قبل سنتين وخرجت المظاهرات كتحدٍّ سافر للأحرف الأولى في أبجدية القمع. وشيئاً فشيئاً، قويت شكيمة المواطنين، وتنامت طرداً مع تنامي العنف السلطوي ووحشيته. لم يحسن النظام قراءة الصور التي كانت تنقلها له كاميراته وعيون عسسه، أو ربما كانت الكاميرات مصابة هي أيضاً بجرثومة الخوف. لم ير الأمل الذي كان يلمع في عيون المتظاهرين، لم ير الفرح الطفولي يخفق في أجسادهم، لم ير عضلات وجههم المشدودة تصميماً وإصراراً، لم يسمع نبض قلوبهم يضبط أغانيهم. لم يفهم ببساطة أن عنصر الأمن القابع في صدورهم كان يضمُر ويضمُر، وأن شجاعة السوريين تتحوّل إلى أمثولة قل نظيرها في تاريخ الشعوب. لكنه كان يشعر بقوة أنه بات مثالاً على أبشع أنظمة الكون، بينما يتحوّل شعبه إلى أجمل شعوبه.

هنا، كان لا بدّ للنظام من أن يستعيد ثقافة الخوف، وكان ذلك يتطلّب استحداث آليات جديدة غير تلك التي هشمتها الثورة. القمع المنكشف، العاري، المطلق كان أولى الآليات الجديدة. أساليب جديدة لا يعرفها قاموس العنف ظهرت، وعُمّمت في صور «مسرّبة» تقول إن الخيال الجهنمي يبقى قاصراً أمام حقيقة جهنم(نا) الخاصة.

ثم جاءت فزاعة العصابات الإرهابية المسلحة. جاءت باكرة جداً، واستُخدمت بكثافة. بل أصبحت مادة للمطرقة الإعلامية الرسمية. لترتعد أوصال المحايدين، والمترددين، والمتفرجين، وأهل الحاضنات الاجتماعية من كل الأطياف، وأهل الطوائف الصغيرة... كانت الفزّاعة تعمل بحرية تثير ريبة المراقبين وتطرح أسئلة على المنطق لا يقدر المنطق على حلّها، إلا إذا أقام رابطاً بينها وبين خطاب التفزيع.

لكن، إن كان ذئب الحكاية يأتي حين نذكره، فإن ذئب الواقع كان هنا حقاً. كان يُسمّن ويقوّى في حقول مجاورة، وهي حقول متربصة بخِممة البلاد وطيورها. وها هو يرخي بظله فوق الأرض والناس. وها هي الأخبار تتواتر من المناطق الواقعة تحت سيطرته لتؤسس لثقافة الخوف من جديد، الخوف من استبداد قادم لن يُحسَدَ الشعب عليه.

لكن يبقى الأمل بأن شعباً كسر خوفاً متراكماً من عقود، لن يصعب عليه صدّ خوف تتراءى طلائعه برایاتها السود.

16 آذار 2013

18. عن عملية اغتيال البوطي

للشيخ البوطي مكانة في عالم الفكر الديني الإسلامي لا يمكن لأحد المجادلة فيها. وهي مكانة، سواءٌ وافق المرء على آراء البوطي أم أنكرها، تنال حظها من التقدير، ليس في سورية فحسب، بل على امتداد العالم الإسلامي. وللشيخ، أيضاً، موقع في آليات السيطرة التي ركّبها ثم مأسسها النظام السوري، لا يمكن لأحد تجاهل قوّته، وحساسيته، في الوقت ذاته. لكن، لعل إحدى أخطر المفارقات التي نواجهها عند محاولة فهم آليات السيطرة تلك تكمن، تماماً، في معرفة كيف قُيّض للبوطي أن يتبوّأ ذاك الموقع لدى نظام ذي لبوس حداثي، يعتبر العلمانية واليسارية والقومية والتحرر الاجتماعي من أسس تكوينه الفكري والإيديولوجي والثقافي، بينما هو (البوطي) لم يمتنع البتة عن التصريح، جهاراً نهاراً، بعدائه للعلمانية واليسارية والقومية والتحرر الاجتماعي.

تضطرنا محاولة فهم المفارقة إلى قراءة علاقة البوطي مع النظام، في سياق التحولات التاريخية التي واجهها هذا الأخير في نهاية السبعينيات، وبداية الثمانينيات، من القرن الفائت. فمن المعروف أن نظام البعث كان قبل ذاك الوقت قد حجّم دار الإفتاء، الواجهة الدينية

الرسمية للدولة، وحوّلها إلى واجهة شكلية مكتفية بوظيفة بروتوكولية، وبالتالي خفتت مصداقيتها لدى جموع المسلمين وفقدت قدرتها التدخلية في ضبط الشارع المتديّن الناقم. من جهة ثانية، لم تكن الجماعات الفاعلة في القضايا التربوية والدعوية، وأهمها جماعة زيد في دمشق، تحظى بالرضا التام من المؤسسة الأمنية التي كانت تنظر إليها بعين الريبة، وترى فيها الحاضنة المولّدة للشباب المنخرطين في النزاع المسلح مع الطليعة المقاتلة، ثم مع الإخوان بشكل عام. من جهة ثالثة لم تكن الأخويات الصوفية النازعة، بطبيعتها وبإيمانها، نحو إرضاء ولي الأمر، لتلق قبولاً لدى الشارع الناقم الذي يغمز من قناة تبعيتها للنظام. وبطبيعة الحال لم يكن لدى مشايخ الإخوان المنهكين في الصراع والذين فرَّ معظمهم خارج البلاد، إن لم يكونوا قد اعتقلوا أو قتلوا، من يرضى النظام بتحميله مسؤولية ضبط العلاقة بين السلطة والشارع المتديّن. هذه المعطيات أوجدت فراغاً أراد النظام ملأه بشخصية قادرة على جمع شروط يمثّل اجتماعها في شخص واحد معادلة بالغة التعقيد. كان على تلك الشخصية أن تكون: 1. محترمة في حقل العمل الديني على مستوى العالم الإسلامي، 2. ذات شعبية ولها مريدوها في سورية، وخارجها، 3. مستقلة عن النظام (ممثلاً بدار الإفتاء)، 4. قريبة من جماعات العلماء دون أن تكون فيها، 5. واضحة الخصومة مع الإخوان المسلمين، 6. غير معادية للأخويات الصوفية، دون أن تكون في واحدة منها، 7. ومقتنعة بقدسية الولاء لأولي الأمر، أياً كانت الظروف. ولم يكن هناك غير الشيخ البوطي من يجمع بشخصه كل هذه الشروط.

من هنا بدأت إذن علاقة البوطي مع النظام. لم يكن موظفاً (رسمياً) لديه، لكنه كان صاحب وظيفة خطيرة في آليات سيطرته، ونجاحه فيها هو ما أوجد له موقعه الاستثنائي. كان البوطي حلقة الوصل بين النظام وجمهور واسع من الرعية المتديّنة. فمن طرف، كان يتدخل لدى النظام

لتصحيح أمر يرى فيه إساءة لما يبدو له أنه من قيم الإسلام (ومن مواقفه المعروفة في هذا المجال اعتراضه في رسالة وقعها عشرات العلماء، ويقال إن البوطي كاتبها، على قرار إلغاء الحلقة الإعدادية من المدارس الشرعية، وانتقاده اللاذع في خطبة له لاتفاقية «سيداو»، وانتقاده للمسلسل التلفزيوني: «ما ملكت أيمانكم»، وانتقاده لقرار فصل المعلمات المنقبات من سلك التعليم...). ومن طرف آخر، كان يجهد في الدفاع عن النظام وفي وعظ مريديه وطلابه ليبقوا على ولائهم له. ومواقفه في هذا المجال أكثر من أن تحصى. ومنها انتقاده للمحتجين الذين كانوا يجتمعون في المساجد قبل خروجهم في المظاهرات، واتهامهم بالخيانة والكفر، ووصفه للقسم الأكبر منهم بأنه «لا يعرف جبينه السجود أبداً»، وهجومه المستمر على الثورة، واستظهاره للخطاب الرسمي في انتقادها وفي توجيه الاتهامات إليها وإلى المشاركين فيها.

لم تكن وظيفة البوطي، ولا شخصيته، بسيطتين أبداً. ويزيد الوضع الذي تمر به سورية اليوم من تعقيدهما، حتى ليبدو أنه من الصعب على أي تحليل عقلاني أن يفهم الخيوط والتداخلات في تركيبهما. وفي وضع كهذا تغدو أي محاولة لفهم عملية اغتيال البوطي شكلاً من أشكال الضرب في المندل. غير أنه ثمة حقيقة واحدة في تلك العملية، وهي أن من قام بها خبير معتّق بشؤون سورية، ويعمل بحنكة وشيطانية على تخريبها، ويعرف تماماً أن عملية من هذا النمط قد تكون الشرارة لحريق مجتمعي يرغب كثيرون بإشعاله لكنهم لم يتمكنوا حتى الآن، ورغم كل شيء، من ذلك. إن عملية اغتيال البوطي، أياً كان موقفنا الفكري والعاطفي من الشخص، هي دفع إلى دركة أدنى في الجهنم التي تسقط فيها سورية.

23 آذار 2013

19. الحب في زمن الثورة

بين الحب والثورة قواسم مشتركة، منها أن كليهما ينهض على توقٍ لتجاوز حالٍ قائم إلى حالٍ مُشتهى. الحب، أياً كانت طبيعته، طاقة جوّانية تشع من إنسان وتصبو إلى تماهٍ في آخر، أو حاجة لجوجة لا تنصرف حتى تجد إشباعها في الآخر. والثورة، أياً كانت طبيعتها، خروج على وضع لم يعد مقبولاً، وفعلٌ يهدف إلى خلق وضع آخر.

ومنها أيضاً، أن كليهما يحتاج إلى قدر من الجرأة والشجاعة والمجازفة. الحب، بدءاً من حركة التعبير الأولى، يحتاج إلى التخلص من الخوف: «لا تجزعن فلست أول مغرم...» (الشاب الظريف). فإن تجاوز المحب الجزع البدئي، تابع في أمره حتى لو قاده إلى السقم: «تعجبين من سقمي، صحتي هي العجب» (أبو النواس)، أو التلف: «قلبي يحدثني بأنك متلفي» (ابن الفارض)، أو الانتحار «سمعنا أطعنا ثم متنا فبلغوا...» (الأصمعي)؛ وكذلك الثورة، يتردد المشارك فيها في رفع قبضته وإطلاق الهتاف: حرية.. أو الله أكبر.. لكن ما إن يفعل حتى تأخذه الحمية، فيهدم حواجز الخوف، ويندفع نحو المزيد من الانخراط الثوري الذي قد يجعل منه ضحيةَ أذيةٍ تبدأ غالباً بالعنف اللفظي، لكن سرعان ما تتطور إلى عنف جسدي ينتهي به إلى المعتقل حيث قد يكون الموت في انتظاره.

التشابه بين الحب والثورة يجعل من الأول ثورةً، على قياس الفرد الواقع فيه، ويجعل من الثانية حباً على قياس الجماعة المنخرطة فيها. وعليه، لاشيء يمنع من الاستطراد حتى القول بأن الحب لا يكون حقيقياً إن لم يكن ثورة، ولا الثورة حقيقية إن لم تكن حباً.

في الانتفاضة السورية، وبينما كانت الثورة لا تزال في مرحلتها السلمية، تبرعم العديد من قصص الحب. كانت جرأة الحالة، حاضنة لجرأة العشاق. تقول صبية في نص كتبته كشهادة عن مشاركتها في الثورة: «هاجمتنا قوات الأمن وقوى حفظ النظام، دخلت بعض الصبايا الأبواب المفتوحة القريبة، لكن طاقة داخلية كانت تدفعني للركض صوب الأزقة الجانبية. كان الشباب أسرع منا فسبقونا. هناك، شعرت أن الأمن يدركني، في هذه اللحظة، هذه اللحظة بالذات، كانت يدك تسحبني كيد إله تسحب من اللجة غريقاً. دفء يدك حينها، كان أول شعور حقيقي بأن الحرية التي أتظاهر من أجلها باتت قريبة». وتقول أخرى: «كنت أتذرّع باشتياقي لأهلي فأذهب إلى مدينتي كل خميس. لكن غايتي كانت المشاركة بمظاهرات الجمعة، ليس لأنني مع الثورة كلياً فقط، لكن لأنه كان ينتظرني، يمشي مع المجموعة التي تحمي النساء المشاركات في المظاهرة، لكنني كنت أعرف أنه كان هناك ليحميني. عشقته مرتين: لأنه هناك، ولأنه هناك ليحميني».

مع التحولات التي طرأت على طبيعة الثورة، تحوّل المناخ الحاضن لقصص الحب، لم تعد الحرية على درجة الألق ذاتها. في داريا، التي كانت جوهرة الثورة السلمية وزهرتها المتفتحة، خرجت جماعة سلفية ببيان يدعو «الحرائر» إلى الامتناع عن المشاركة في المظاهرات، لأنهن، بمشاركتهن الرجال، يستجلبن غواية الشيطان. تقول ناشطة في إحدى بلدات الغوطة على صفحتها على الفيسبوك: «تحوّلك يذهلني، تشيح

بوجهك عني حين تطلب مني أن ألزم البيت، وقبل سنة كنت تختلق الذرائع لتلمس يدي في المظاهرة!».

بعض القصص هاجر مع أبطاله الذين هاجروا هرباً من العنف المتصاعد والموت المحيط، بعضها مات باستشهاد أحد أبطاله، وبقيت منه شهادات على الفيسبوك تعصر الروح. وبعضها نشأ خفياً ولا يزال يحيا في عالم التواصل الافتراضي.

ومع محاولات تحويل الثورة عن الأهداف التي قامت من أجلها، تجهد قوى خفية للنيل من أخلاقيتها، فتنشر شريطاً مصوّراً لمقاتلات في حرب الشيشان وتقول إنهن تونسيات جئن إلى سورية تلبية لجهاد المناكحة الذي أفتى به جاهل من السعودية، والذي لا يعدو كونه تشريعاً لشكل من أشكال الدعارة.

خضعت الثورة لتحولات عميقة تهدد بأخطار جدية عليها وعلى سورية. لكن، وحتى في هذا التحول، تبقى الثورة شبيهة بالحب، فهو أيضاً «...أعزكم الله، أوله هزل وآخره جِد» (ابن حزم).

31 آذار 2013

20. البيت الموؤود

ليس البيت سقفاً وجدراناً تحمي من يعيشون في كنفها، وليس خزّاناً للذكريات المبعثرة على كل ذرة من حناياه، وليس عالماً تربط صاحبه علاقة خاصة مع أشيائه التافهة والثمينة... البيت هو كل هذه الأمور، وغيرها أمور أخرى أغنى وأجلّ. فالعلاقة بين الإنسان وبيته هي أكثر من علاقةٍ، هي حياة.

البيت هو روح صاحبه. روح يظهر بريقها فوق الذرات المتناثرة على امتداد شعاع شمس يتسلل عبر زجاج؛ روح تعشش في رائحة الفراش والكتب المغبرّة ونعناع الشرفة وكبش القرنفل، روح تتمايل غنجة على صوت المفتاح في الباب وتغمر الضيف ما أن يطل.

والإنسان هو روح بيته أيضاً، روح تتجسد في الأغراض، في طريقة ترتيبها، في لون الجدران، في ورود المزهرية، في درجة اتساع زاوية فتح النوافذ، وفي الأسرار المخبأة في الزوايا والدروج وتحت أغطية الفراش.

إنها روح واحدة في جسدين: جسد البيت وجسد الإنسان صاحبه، لذا، إن مات أحدهما مات الآخر.

أعمار البيوت أطول، عادة، من أعمار أصحابها، وقد تُراكم أرواحَ أجيال من العائلة الواحدة، وهذه البيوت هي أكثرها سعادة. وبعضها

يشيخ وتحفر التجاعيد وجوهه الأربعة، وتُشقّق عوامل الزمن سقفه. غير أن بعض البيوت يموت دون إنذار مسبق، كتلك التي يقلبها زلزال مدمّر أو تقتلعها كارثة طبيعية جارفة. وبعضها يقتل غيلة، يستشهد.

في سورية اليوم تجاوز عدد الشهداء المئة ألف، لكن عدد البيوت الشهيدة صار أكبر بكثير. اليوم تقتل البيوت بصاروخ، بقذيفة، بانفجار، وإن كانت أجسادها لا تنزف دماً، فإن منظرها وقد تحوّلت إلى ركام لا يقل مأساوية عن منظر إنسان قتيل.

الشهيد في الثقافة السائدة لا يُغَسَّل، لأن لجراح الشهيد ودمائه عطر يعرّف به يوم الحساب، ومحمّد «لم يغسّل حنظلة الراهب»، كما يقول الأثر. لكنّ الشهيد «يكفّن في ثياب صالحة للكفن». والبيوت الشهيدة لا تُنظّف ولا تُغسل ولا تكفّن، بل تبقى أشلاؤها المتقطعة تحت رحمة عيون الغرباء. وقد تصبح «معرضاً لسائح يهوى جمع الصور». صور تزداد «قيمتها» بقدر ما تكشف من الأشياء التي تحمل بقايا من أرواح أصحابها: لعبة طفل، فردة حذاء، إصيص ورد، مرايا مهشّمة...

لكن، إضافة إلى هذا النمط من البيوت الشهيدة، ثمّة نمط آخر يحمّل صاحبَهَ أحزاناً مضاعفة. إنها البيوت الموؤودة.

البيت الموؤود هو ذاك الذي تدفع الظروف بصاحبه إلى هجره، فيقطع بيده حبل السرّة الواصل بين روحه وروح بيته، ويتركه تحت رحمة المجهول. إنه بيتٌ شهيدٌ مع وقف التنفيذ. لكنه شهيد يُغَسّل ويُكفّن. قد يبدو هذا التميّز نعمةً، لكنها نعمة مجبولة بحرقة وغمٍّ لا قرار لهما.

عندما يقوم صاحب البيت بتكفين روحه، ذكرياته، أثار شيطنة أولاده، رائحة الألفة العائلية، ودرجة الضوء الخاصة التي نمت فيها عرائش حياته... عندما، قبل لفّ الأغراض وتثبيت الثوب الصالح للكفن فوق ثناياها، يعتذر منها لأنه لا يستطيع حملها معه. عندما يلقي النظرة

الأخيرة على كل غرفة قبل أن يغلق بابها كمن يضع «الشطيحة» فوق جسد الميت المكفّن في قبره. يشعر صاحب البيت بأنه يقوم بعملية انتحار بالتقسيط. كل حركة في مسار تكفين البيت الموؤود طعنة سكين في روح صاحبه. طعنة لا سبيل لعلاجها لأنها خطوة في سلسلة من الطعنات التي عليها أن تستمر لتصل إلى الهدف المحتوم.

وأخيراً، عندما يغلق صاحب البيت الباب الخارجي، ويدير المفتاح في القفل، يتوقف للحظة قبل سحب المفتاح، لحظة قصيرة قصر لحظة الموت، وطويلة طول الحياة التي تركها خلفه. لحظة لا يتساءل خلالها إن كان قد نسي غرضاً ما ليعود ويأخذه، وإنما ليتساءل إن كان قد نسي أن يقول لبيته جملة الوداع المناسبة.

تخطر في هذه اللحظة أمام صاحب البيت صورة الأب الذي يئد ابنه حيّاً فينتبه أنه نسي أن يقول الجملة الوحيدة المناسبة لهذا المقام: يا بيتي سامحني...!

30 **نيسان** 2013

21. صناعة التفاؤل

المهم أخيراً... هل أنت متشائم أم متفائل؟

يكاد لا ينجو نقاش بين سوريَّين يلتقيان بعد غياب من هذا السؤال المفتوح على مزدوجة من حالين قصِيّين متناقضين: التشاؤم أو التفاؤل. ومن نافل القول إن المقصود من الحالين يخص حال البلد بالدرجة الأولى قبل حال أهلها.

يعرّف المصوّر الفرنسي «بيكابيا» المتشائمين بأنهم أولئك «الذين يرون النهار منحصراً بين ليلين»، أما المتفائلين فهم «الذين يرون الليل منحصراً بين نهارين». فإن ترجمنا هذه المعادلة بدلالة الوضع السوري نجد أن المتشائم هو من يقول بأن القادم لن يختلف في طبيعته عن الراحل، وأن الاستبداد سيُستبدل بآخر، رغم استثنائية اللحظة الثورية التي تعرفها البلاد. أما المتفائل فهو المقتنع بأن البلاد كانت بهيّة وستعود أكثر بهاءً بعد انتهاء هذه اللحظة المأساوية.

يحق للسوريين أن يتشاءموا، فالمصاب عميم، والكارثة لم تترك عائلة بلا أذى. والفرق بين عائلة وأخرى هو في حجم الأذية التي لحقت بها، وليس في مدى نجاتها منها. ويحق لهم أن يتشاءموا لأن الأيام تتوالى شحيحة بالأخبار السعيدة، أو حتى بما يدعو إلى ترقّب السعادة. بل تبدو

نهاراتهم القادمة حبلى بعذابات قد تكون العذابات المعاشة في ليلهم القاتم اليوم رفاهية مقارنةً بها. وكأن تطور الشأن السوري تظهير لمقولة المسرحي جان راسين: «ربّ ليلٍ أكثر بهاء من بعض النهارات».

وحدهم تجّار الحروب لا يتشاءمون. تشاؤمهم يعني أن القتل ماضٍ إلى انحسار. وإن حصل ذلك فإنهم مستعدون لصبّ زيتهم على خامد النيران ليعود التهابها، ويعود تفاؤلهم بغنائم موعودة. يُروى عن السياسي والمؤرخ الفرنسي «فرانسوا غيزو» قوله: «العالم مِلكٌ للمتفائلين، أما المتشائمين فليسوا أكثر من متفرجين». ولم يكن المتفائلون في عقيدة «غيزو» غير الأثرياء العاملين على تكديس الثروات أياً كانت الوسيلة إلى ذلك. أما المتشائمين فكانوا برأيه أهل باريس الذين قاموا بثورة شباط 1848 والذين اقترح على الملك لوي فيليب أن يبيدهم هم ومتاريسهم.

هل ينسجم التشاؤم حقاً مع الثورة؟ إن لم يكن التشاؤم حالة مرضية تسحق روح صاحبها فهو لا ينسجم مع الثورة فحسب بل ضروري لها. التشاؤم في هذا المعنى وضع خلّاق يحمي أنصار الثورة والفاعلين فيها من التراخي أمام وردية الأحلام، وينجيهم من الاستسلام إلى حتمية تحقيق المشتهى. هو ناقوس يقرع رأس أهل الثورة لكي لا يتوقفوا عن معاينة حالها ودراسة واقعها المتبدل معاينة صارمة، صادقة، مستديمة، تساعدهم على تملّك القدرة على فهم تغيّرات الواقع، وعلى تفكيك تعقيداته. التشاؤم طاقة ذهنية وروحية تبقي على أهداف الثورة ماثلة في عقول أهلها، وتنبههم إلى انحراف مساراتهم ليقوّموها، وإلى تراخي هممهم ليوقظوها.

في هذا السياق، تصبح صناعة التفاؤل أهم وظيفة للتشاؤم. ليس في الأمر أي تناقض بل هو أمر تعلّمنا إياه الطبيعة، إنه استخراج الترياق من السم، أو استخدام الميكروبات المسببة لمرض ما في صناعة لقاح

يحمي من هذا المرض. ولا تبتعد هذه الفكرة عن القاعدة النضالية الغرامشية: «تشاؤم العقل وتفاؤل الإرادة». فتشاؤم العقل هنا ليس نقيضاً لتفاؤل الإرادة، وإنما هو المحفّز المستمر لهذه الإرادة لكي لا تتوقف عن صناعة التفاؤل.

إن من ينظر إلى الواقع السوري اليوم، وإلى الوجهات التي تحوّلت إليها الثورة، وإلى المآلات التي يقود إليها تطور الأوضاع، يحق له أن يتشاءم. لكنه، إن بقي في حال التشاؤم ذاك وقع في سوداوية مَرَضية لا تُخرج من الحمأة التي نحن فيها، ولا تنجي من جهنم التي تنتظرنا. ثمة مهمات جسيمة ترخي بأثقالها على أكتافنا، وإن لم نشحن إرادتنا لإزاحتها ستسحق بلدنا، وتسحقنا حتى لا يبقى له، ولنا، وجود.

قد لا يكون غدنا نحن السوريين مشرقاً، لكن علينا فعل المستحيل لنثبت الشمس في كبد السماء.

9 **أيار** 2913

22. لا تغمض عينيك...!

إلى أطفال مذبحة قرية البيضا

هل شاهدتم صورَهم؟ كثيرون حاولوا ألا يشاهدوها. أشاحوا بوجههم عن الشاشات التي تتناقلها أو امتنعوا عن فتح أي موقع يحملها. أَلِسَأمهم من صور القتل، ورائحة الدم التي تفوح منها؟ ألرغبتهم في ألا يكون الأمر حقيقة أم لجبنهم في رؤية الحقيقة؟... كل الاحتمالات ممكنة، وفي جميع الأحوال، إن كان ثمة من لم يشاهدها بعد، فليفعل، ليضع إنسانيته وأخلاقياته وإيمانه وحساسيته ورهافته ورقّته وامتعاضه وقرفه ووو... في الثلاجة للحظات ويشاهد تلك الصور: صور مجزرة قرية البيضا.

شيء ما يقول للمشاهد إن ثمّة في ما يراه كذبةً ما، غشّاً، تلاعباً، ليس لأن الصور مفبركة أو مصطنعة وإنما لأن ما تنقله لا يستطيع عقل بشري سويّ أن يصدّقه. وكذلك لا يستطيع أن يصدّق أفلام الفيديو التي تنقل ابتهاج منفذي المجزرة بفعلتهم. من أي خامة صنع هؤلاء الناس الذين يتباهون بعملهم؟ أي عُصارة شيطانية أضيفت إلى طين خلقهم؟

صور مجزرة البيضا، لا يمكن للمشاهد أن يراها ويتوقف عندها ليحللها. لكن لا بأس أن نحاول ذلك في محاولة للبحث عما يبهرنا في

تلك الصور، وعن مصدر قوّتها. في مستوى أول: (مستوى الصورة كمنتَجٍ فوتوغرافي) تتمثّل تلك القوة في تحقيق هذه الصور لمعادلة توزيع عناصرها المركزية على نقاط تقاطع شبكة خطوط القوة، كما يقول نقّاد التصوير الفوتوغرافي المتخصصون. أو من انتشار تلك العناصر على مسار لولبي خاص يذكّر بلوالب «الواسطي» في منمنماته ثنائية الأبعاد.

وفي مستوى ثان أعمق من مستوى النظرة الفنية، هو مستوى الإدراك والفهم، تنبثق قوة الصورة من «استحالتها»، «لا إمكانيتها»، «لا معقوليتها». كيف يمكن أن تتحوّل قدما طفل رضيع إلى ما يشبه خشبتين محروقتين كما لو كانتا قشّتي كبريت؟ كيف يمكن لوجه امرأة أن يصبح نصف وجه كما لو أن ذئباً هائلاً اقتلعه بأنيابه؟ كيف يمكن لعنق صبي أن يُحزّ كما لو كان حَمَلاً معَدّاً للسلخ؟ هذه موضوعات لم يعتد المشاهدون رؤيتها في صورة منقولة عن الواقع. قد نلقى ما يشبهها في الإبداعات الفنية المتخيّلة، في لوحة من لوحات «غويا» في مرحلته السوداوية مثلاً، أو في بعض مشاهد فيلم «سالو» لـ«بازوليني»، أو في بعض مقاطع رواية «سفر نحو أعماق الليل» للفرنسي «سيلين»، لكن، ربما لم يسبق أن رأينا مثيلاً لها في صور الحياة الحقيقية.

أما في المستوى الثالث، وهو مستوى الوثيقة، أو المستوى التاريخي، فتأتي قوة الصورة من حيث هي شاهد ودليل إثبات على ما يرتكبه هذا النظام من جرائم بحق شعبه. وهي بهذا المعنى ستوضَع غداً، أو بعد غد، بين أيدي القضاة في المحاكم الدولية المختصة لمقاضاة جميع المسؤولين عن المجازر التي ترتكب اليوم بحق الشعب السوري، وستشهر أمام من يشكّلون «هرم المسؤولية عنها». وهو الهرم الذي يبدأ من أعلى: من الشخص الذي اختار سياسة العنف المتوحّش وأمر بتطبيقها، ثم يتدرج نزولاً إلى من وضع خططها ثم إلى من أمر بتنفيذها لتصل إلى من

نفّذها. هذا من شروط العدالة التي لن يرضى الشعب بأقل منها ليبدأ بالخطو نحو المصالحة الوطنية، وهي عدالة انتقالية وليست انتقامية.

في غرف المصوّرين الفوتوغرافيين «ما قبل الديجيتاليين»، حيث كان استخدام نور الفلاش القوي ضرورياً لنجاح الصورة، كان المصوّر يقول للطفل الفرح بوعد الحصول على أول اعتراف مادي بشخصيته: لا تغمض عينيك، حتى لا تظهر في الصورة نائماً..! كان يعرف أن الضوء القوي القادم من الفلاش سيبهر عيني الطفل ويدفعهما إلى الإغماض. وكان على الطفل أن يقاوم الانبهار، ويحتمل شدة الضوء، فهو الشرط للحصول على صورة ناجحة، تبرز حقيقته، وتشكّل وثيقة عن مرحلة من حياته ينظر إليها في غده ليرى كيف تطوّر وصار إنساناً.

أمام صور مذبحة قرية البيضا، تدفعنا الرغبة إلى القول لكل سوري، ولكل من شارك في هذه المجزرة وفي غيرها، لكل الأطفال الذين يقضي أباؤهم، ومن يقود آبائهم، على مستقبلهم؛ يدفعنا الغضب للصراخ في وجه العالم المطعون في إنسانيته: لا تغمض عينيك..!

14 **أيار** 2013

23. سورية، لا أمّ لها

غدا احتمال تقسيم سورية إلى دولتين أو أكثر، تأسيساً على التصدعات الإثنية و/أو المذهبية الكامنة في المجتمع، واحداً من السيناريوهات الشائعة التداول على صفحات الإعلام أو في نقاشات الحياة اليومية. إن السهولة التي باتت تطرح بها مسألة بالغة الخطورة كمسألة تقسيم البلاد، تعيد إلى الأذهان السؤال العميق والخطير عن الشكل النهائي للوطن السوري، وتسترجع مخاوف راسخة في الذاكرة الجمعية السورية حول هذا الموضوع. لقد جنّد النظام الدولةَ وأجهزتها الإيديولوجية المختلفة لتقوم بأدوتة بعض هذه المخاوف كقضايا صراع، يستطيع التلاعب بها بما ينسجم مع مصالحه السياسية والجيوسياسية المتغيّرة. لكنه، في الوقت نفسه، وضع كل طاقاته لكتم أي صوت يذكّر ببعضها الآخر، كما لو كان يريد أن يمحوها من ذاكرة الناس، لغاية ليست في نفس يعقوب، وإنما طيّ الوثائق السرية التي قد تتكشف أمام الأجيال القادمة، أو تغرق في غياهب النسيان.

الذاكرة الجمعية السورية عن الوطن كمكان جامع لمواطنيه حبلى بندوب البتر والاستئصال والاقتطاع.

بدأت أولى عمليات تقسيم المنطقة عام 1916 عندما قررت حكومتا

فرنسا وبريطانيا تقسيم بلاد الشام والعراق إلى دويلات صغيرة، حسب اتفاقية سايكس بيكو. وبعد سنة من تلك الاتفاقية، أصدرت الحكومة البريطانية عام 1917 الرسالة التي صارت تُعرف، في ما بعد، باسم «وعد بلفور» والتي تعهّدت فيها بالمساعدة على إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وكان كما يعرف الجميع أساس تأسيس دولة إسرائيل بعد ثلاثة عقود من صدوره.

في اليوم الأول من تشرين الأول عام 1918، دخلت قوات الثورة العربية مدينة دمشق، وفي الشهر نفسه احتلت فرنسا الساحل السوري تطبيقاً لاتفاقية سايكس ـ بيكو. وقد رفض المؤتمر السوري العام الذي انعقد في حزيران 1919 في دمشق الاتفاقية والوعد والانتداب، وطالب باستقلال سورية الطبيعية (بما فيها لبنان وفلسطين) والعراق. لكن رئيسي الوزراء البريطاني «لويد جورج» والفرنسي «جورج كليمنصو» عقدا اتفاقاً في أيلول من العام نفسه أكّدا فيه على الاتفاقية مع تعديل بسيط يعطي لفرنسا الساحل السوري مقابل منح الموصل لإنكلترا. وبناء على ذلك الاتفاق دخلت قوات الانتداب الفرنسية سورية يوم 20 تموز 1920، وبعد أربعين يوماً (31 آب) أصدر غورو قراراً بضم الأقضية الأربعة (بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا) والساحل إلى جبل لبنان لإنشاء دولة لبنان الكبير .

عام 1921 عقدت فرنسا اتفاقية أنقرة الأولى التي منحت بموجبها لتركيا منطقة (جنوب الأناضول) التي تضم (كليكيا وأضنة والرها وحرّان وماردين وديار بكر..)، وفي 23 حزيران 1939 عقدت اتفاقية أنقرة الثانية التي نصّت على ضم لواء إسكندرون نهائياً إلى تركيا لاستمالتها في الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا.

وفي حرب حزيران 1967 «النكسة»، قامت إسرائيل باحتلال

الجولان، لتقوم من بعد ذلك بضمّه، رغم أنف الشرعية الدولية المطالبة بعودة الأمور إلى ما كانت عليه يوم 4 حزيران.

سلسلة من الاتفاقيات والمعاهدات المعلنة، أو المخفية، انتهت بسورية إلى الشكل الذي هي عليه الآن، وربما يجدر بالسوريين أن يستذكروها الآن، ليس إحياءً لمفاصل أليمة في حياة وطنهم فحسب، بل إذكاءً ليقظة واجبة ومشتهاة قبل أن «يقع الفاس بالراس»، حسب المثل السائر.

يروي العهد القديم في سفر الملوك (3، 16–28) حكاية عن حكمة النبي سليمان حين مثلت أمامه امرأتان تدّعيان أمومة طفل واحد، فأمر بقطع الطفل نصفين ومنح كل امرأة من المدعيّتين نصفه. لكنّ الأم الحقيقية ترفض التجربة وتتنازل عن حقها إشفاقاً على طفلها. وقد اعتمد المسرحي الألماني «برتولد بريخت» على هذه الحكاية في كتابة مسرحيته «دائرة الطباشير القوقازية» عام 1945. وفي هذه المسرحية يأمر القاضي «أزداك» بوضع الطفل المتنازع عليه ضمن دائرة، ثم تقوم المرأتان بشده وتلك التي تقدر على سحبه خارج الدائرة تفوز به، وهنا أيضاً تتنازل الأم التي تحب الطفل أكثر عن حقها خوفاً على الطفل من الأذية.

لقد كان التاريخ المعاصر ظالماً بحق سورية التي تجاذبتها قوى قطعت أوصالها. واليوم، وأمام التساهل في الحديث عن تقسيم البلاد، أخشى ما نخشاه أن يتحوّل الهزل إلى جد. إذ لا يبدو أن ثمة ما يمنع تكرار مآسي التاريخ، وسورية، كما تثبت الوقائع كل يوم، لا أم لها تحميها.

24 **أيار** 2913

24. رؤوس التبن

من العبارات الكثيرة الاستعمال في المدارس السورية عبارة: «رؤوسكم محشوّة تِبناً». أساتذة المدارس السورية أدمنوا هذه العبارة. كانوا يستخدمونها ليسخروا من ضعف قدرة التلاميذ على فهم تعاليمهم المقدسة. وهي مقدسة بنظرهم، لأن من أول ما كانوا يجبرون التلاميذ على حفظه بيتاً من الشعر يماهي بين المعلم والنبي (قمْ للمعلّم وفّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا). أساتذة المدرسة، الذين كانوا يعلّمون التلاميذ كيف يتعاملون معهم بالتبجيل الذي يستحقونه، كانوا يعلّمونهم أيضاً كيف ينقعون أدمغتهم بروح الملح لإزالة الشوائب والقاذورات العالقة بعقلهم. وإذ كان من طبيعة التلاميذ المراهقين ألّا يأبهوا لنصائحهم، كان الأساتذة يتحوّلون من النصح إلى العنف سبيلاً للإقناع القسري. وكان ذاك العنف يأخذ أشكالاً صريحة، تتراوح بين الصفعة الخلّاقة والفلق (الضرب بالعصا على قفا القدم) المبدع. وكان لهاتين الصفتين ما يبررهما في عقلية الأساتذة «بناة الأجيال». فالصفعة كانت خلّاقة لأنها تحوّل التبن إلى كهرباء تنير مصابيح الفهم في ظلمة رأس التلميذ، أما الفلق فكان يحرك الدم من قفا القدمين صُعداً في كل الخلايا محوّلاً رأس التبن إلى مصنع للأفكار.

عندما كانت البلاد «تتطوّر» في ظل الشعار الجهور : «لا حياة في هذا البلد إلا للتقدم والاشتراكية»، بقيت رؤوسنا، نحن من كنا نعيش مراهقتنا آنذاك، محشوّة تبناً. لكن أحداً منا ما كان ليشكّ بالتقدم والاشتراكية الماثلة آياتهما في كل مكان.

من تلك الآيات صدور قرار يمنع الضرب في المدارس، استبدل معه المدرسون ثياب القداسة التي كانوا يرفلون فيها بثياب المناضلين من أجل بناء «المجتمع العربي الاشتراكي الموحّد». تبدلت صفات الواحد منهم من نبي إلى معماريّ يساهم في بناء مجد الوطن، وتبدلت بالتالي طبيعة محاولات الإقناع وتنظيف العقول من الشوائب الرجعية ومن الميول نحو الثقافات المعادية للفكر القومي الاشتراكي بصيغته البعثوية. صار العنف خفياً لا تمكن رؤيته، ألبسوه قفازاً مخملياً، لكن مفاعيله بقيت تدل على وجوده.

ذات يوم كان أحد بناة الحضارة هؤلاء يحاول إفهام طلابه كيف يسير المجتمع على درب بناء الاشتراكية، وأن القصور الفارهة التي تبزغ بين عشية وضحاها في بقع الحراج التي احترقت آخر الصيف ليست سوى الحد الأدنى مما يجب على الوطن تقديمه لأولئك الذين ضحّوا بكل ما عندهم كرمى لعين الاشتراكية.

وقف يومها صديقنا صباح الذي كنا نسخر من اسمه ذي الرنّة الأنثوية فتناديه صبّوحة وسأل المعلم: وماذا قدّم فلان وفلان؟

لم يغضب المعلّم لكن، في صباح اليوم التالي، وكل الصباحات التالية، لم يأت صباح إلى المدرسة. عرفنا بعد ذلك أنهم أرسلوه إلى مشغل لتنظيف الرؤوس!

ومن آيات التطور أيضاً، تغيير السياسة التربوية لتتماشى مع سياسة قولبة الأدمغة حسب مقاسات السلطة الاستبدادية الشمولية،

فانتفت من تقنيات التعليم مساحات التفكير النقدي الحر، وطفت آليات التلقين. واختزلت تلاوين التاريخ إلى ثنائيات الأبيض والأسود، التقدمي والرجعي، العربي والعجمي، الوطني والعميل، الإمبريالي والاشتراكي... وأُزيحت من المناهج مادة التربية الوطنية لتفسح في المجال لمادة «التربية القومية الاشتراكية»... ودخلت العسكرة على المدارس، وأُدرجت عبادة القائد الخالد في قيم التربية التي يجدد الجميع، كل صباح، قسَمَ انضوائهم تحت راياتها.

تطوّرٌ تقدمي استبدل الشُحّار بالتبن القديم.

حُوِّلَ الشعب قطيعاً، والمواطنون رعايا. وصارت الابتهاجات الشعبية والمسيرات المليونية مناسبات لتصيّد العصِيين على القولبة. ومن هؤلاء جماعات من النخب الثقافية والسياسية.

عندما انطلقت انتفاضة الكرامة والحرية من عامين، كانت تحمل بذور الثورة على العقلية التي ترى في رؤوس المواطنين أكياساً محشوة تبناً أو أوعية تُملأ بالشُحَّار. لكن ماجريات السنتين الماضيتين، بكل ما فيها من مظاهر عنف، وتعصب، وتطرف، ورفض للآخر، واستعداد للاستزلام، وأنانية مثقفين، وغطرسة سياسيين... تظهر مدى تصلّب البنية الفكرية التي رسّخها النظام ونظم تعليمه البلهاء، وهذا كلّه يحتاج إلى ثورة مواطنية، لا تبدو الثورة المحتدمة اليوم سوى حلقتها الأولى.

3 **حزيران** 2013

25. وإذا نزل النبي...

الطفل «محمد القطاع» تلفّظ، في لحظة حنق، بعبارة لم يقبل بها بعض من ينصّبون أنفسهم حراساً على الحياة. فاقتادوه إلى جحر يقررون فيه أحكامهم، ثم ارتؤوا أن يجعلوا منه عبرة لأهل الحي فقاموا بإعدامه، أمام أعينهم، رمياً بالرصاص.

على الرغم من هول الجرائم التي ترتكب كل يوم في سورية. لا يجدر بنا اعتبار القضية عادية، والسكوت عنها، امتثالاً لدعوات بعضهم بعدم جواز انتقاد الثورة، أو رضوخاً للذريعة المكررة بأن الثورات لا يقوم بها الملائكة، وأن الأخطاء الفردية فيها لا تستحق أن نعيرها اهتماماً زائداً. فالقضية مركّبة، وتحمل عدة مستويات يحتاج كل منها الوقوف عنده والتفكير فيه.

ففي مستوى أول هناك عصابة، من ثلاثة أشخاص، حاولت ممارسة سلطة على الطفل بائع الشاي، ليقدّم لها سلعة تريد الحصول عليها دون مقابل. لم يمنح أي اتفاق، أو حتى مساومة، هذه العصابة الحق في ممارسة أي سلطة اجتماعية. وحده السلاح الأعمى هو الذي حوّل أعضاء العصابة إلى متنفّذين متوهمين أنهم أصحاب سطوة من دون العالَمين.

وهناك في مستوى ثانٍ عملية اعتقال اعتباطية لطفل لمجرد تلفظه

بجملة لا يمكن أن تفسّر إلا كردة فعلِ مراهقٍ، استنجد بإرثه الثقافي دفاعاً عن الكرامة كما يفهمها الشباب في هذه المرحلة العمرية. «إذا ينزل النبي ما بديّنك»، تركيب الجملة لا يترك مكاناً للشك في أن الطفل كان قد أسقط في يده برفضه الرضوخ لطلب العصابة، فلجأ إلى استحضار المقدس (النبي) كوسيلة للحماية.

وهناك في مستوى ثالث سلطة شرعية نصّبت نفسها بنفسها، لم تنل صلاحياتها من أي مصدر مجتمعي أو مواطني أو سياسي أو إداري. سلطة، لا حق أصلاً في وجودها، تمنح نفسها الحق في محاكمة الناس، ضاربة عرض الحائط بأصول المحاكمات، حتى كما يفترضها الشرع الذي يتظللون بعباءته.

وهناك في مستوى رابع إطلاق حكم بالإعدام، والأنكى من ذلك، على طفل، والأنكى من ذلك لأمر ظنّوا أنه جرم، أو بدا لهم كذلك. ولنفترض أن ما فعله كان جرماً. هل ثمة في الشريعة كلمة تستحق أن يجازى ناطقها بالقتل؟ ألا بئس هذه الشريعة إذن.

ليس قتل «محمد القطاع» أمراً عادياً. إنه جريمة كبيرة، وربما لا يشبهها في السنتين الماضيتين سوى جريمة قتل الطفل «حمزة الخطيب» في بداية انطلاق الثورة. فهما، «الجريمتان»، تشتركان بأكثر من نقطة.

فكلا الطفلين، «القطاع» و«الخطيب»، مراهق نطق كلاماً يعبّر فيه عن عنفوان المراهقين، وعن ورفضهم لما يعتبرونه امتهاناً لكرامتهم. لقد انطلقت الثورة بكاملها انتصاراً لكرامة الناس، وليس لاستبدال استبداد ممؤسس باستبداد همجي.

وكلا الطفلين ضحية لعنف أعمى، لا يردعه عقل، ولا تقوده سوى الرغبة في بسط السلطة والغطرسة المتباهية بالقوة.

وكلا الطفلين استخدم قاتلوهما جريمتهم لتمكين سيطرتهم على

المجتمع، فقتلهما لم يكن بهدف التخلص منهما فحسب وإنما في أدوتة الجريمة، أي تحويلها إلى أداة ترهيب ترسّخ الخوف في المحيط الاجتماعي الذي تم تنفيذها فيه.

تمثّل جريمتا قتل «الخطيب» و«القطاع» لحظتين مفصليتين في تاريخ الثورة السورية. صحيح أن جريمة قتل «الخطيب» لم تكن الشرارة التي أطلقت الثورة، لكنها كانت الحدث الذي حرّك قسماً من الكتلة الصامتة من السوريين ضد النظام، أما جريمة قتل «القطاع» فإنها مؤهلة بامتياز لتكون الحدث الذي سيحرّك قسماً من الكتلة المعارضة لصالح تقويم مسار الثورة!

وأخيراً، لقد قال «محمد القطاع» لعصابة القتلة باسم الغيرة على الدين ورموزه: «إذا ينزل النبي، ما بديّنك»، وبودّنا أن نقول لهم: «وإذا ينزل النبي لن نسامحكم»، ثم ليته ينزل النبي ليرى ما تفعلون، ولا شك أنه عندها سيأتي بمعجزة تخلص سورية، والإنسانية، منكم ومن شروركم المرتكبة، زوراً وبهتاناً، باسم النبي وهو منكم براء.

12 **حزيران** 2013

26. المجتمع المدني القادم

يُحدِث الصراع الدائر في سورية تغييراتٍ كبيرةً في المجتمع المدني فيها. وهي، أياً كان الشكل الذي ستنتهي إليه الأمور، تؤسس لأشكال جديدة من العمل المدني، ولآليات تنسجم مع الحاجات التي سيفرزها شكل الدولة القادمة، وطبيعة العلاقات التي ستحدد حال المواطنة، وهي حال لم يسبق لسورية أن عرفتها في تاريخها المعاصر أو الحديث.

في عودة سريعة لتاريخ المجتمع المدني السوري منذ بدايات النظام الحالي، أي من مطالع السبعينيات، نستطيع القول إنه قد مرّ بثلاث حِقبات أساسية: الحقبة الأولى (1970–2000)، الحقبة الثانية (2000–2011)، أما الحقبة الثالثة فهي التي بدأت مع انطلاقة انتفاضة الكرامة ولا تزال مستمرة باستمرار الوضع القائم.

عندما استولى حزب البعث على السلطة في انقلاب 1963 لم يكن المجتمع السوري خاوياً، بل كان لا يزال موّاراً بالحياة المدنية المتمثلة بالجمعيات والنقابات والصحافة الحرة والأحزاب السياسية (إذا اتفقنا على اعتبارها جزءاً من الحيز المدني ما دامت لم تصل إلى السلطة بعد). في تلك اللحظة بدأت إرهاصات الاستبداد مع إجراءات التفرّد بالسلطة المتمثلة، بشكل خاص، بالمراسيم الصادرة عن مجلس قيادة الثورة صبيحة يوم الثامن من آذار.

في عام 1970، وبعيد إحكام قبضته على مقاليد الحكم، شرّع الأسد الأب بوضع أسس نظام الاستبداد الذي وجد التعبير النموذجي له في المادة الثامنة، السيئة الصيت، من الدستور. في هذه الحِقبة أصبحت المؤسسات المدنية من منظمات واتحادات ونقابات... بل وحتى الأندية الرياضية، جزءاً حيوياً من «المجتمع المضاد»، وتحوّلت من أجهزة وسيطة تحمي المجتمع من عسف السلطة إلى أجهزة وسيطة تنقل ذاك العسف إلى المجتمع.

مع تولّي الأسد الابن للسلطة، استبشر الناس خيراً بالوعود الإصلاحية التي أشاعتها أجهزة النظام الدعائية والاستخباراتية في البلاد. غير أن عشر سنوات في السلطة لم تشهد على مستوى المجتمع المدني الإصلاح المنشود وإنما شهدت احتيالاً معلناً كانت عناوينه الرئيسة تشكيل «منظمات حكومية غير حكومية» أو ما يعرف عالمياً باسم (الغونغوز Go,Ngo's)، وهي منظمات تعمل في الحيز العام لكنها شديدة الارتباط بالبلاط وبطانته، وتتميز منها «منظمات السيدات الأوَلَيات (الفلنغوز Fl,Ngos). تتمتع هذه المنظمات، على غرار «الأمانة السورية للتنمية Trust»، بحمايةٍ وحريّة حركةٍ وتمويلٍ وسلطات تدخلٍ... لا حدود لها، مما يحوّلها إلى ما يشبه «ثقباً أسود» يجذب كل الطاقات المتحفّزة للعمل المدني، وخاصة الشباب، بفعل المغريات المادية والمعنوية التي توفّرها لها. على هامش هذه المنظمات المتعملقة باستمرار، سُمح لبعض الجمعيات الجديدة، كجمعيات حماية البيئة، بالوجود لتجميل المنظر العام، لكن الرقابة لم تبارح كل هذه التكوينات، إذ كان يكفي شيء من غضب المتنفّذين للتراجع عن قرار التسامح، كما حدث مع جمعية المبادرة الاجتماعية مثلاً.

لقد كانت الثورة السورية في بدايتها انتفاضة حرية وكرامة، قام بها مجتمع مدني غير منظم. لكن سرعان ما تبيّنت أمام الناشطين الحاجة

إلى التنظيم المجتمعي، فبدأت تتأطر مجموعات ضمن لجان تقوم بإدارة الحَراك، ثم أخذت هذه اللجان تتلاقى في تجمعات أكبر لتنظيم العمل على مستوى أعمّ من مستوى مجاميع الأصدقاء، أو الشلّة، واضعة علامة فارقة على خطى بناء مجتمع مدني جديد ينطلق من حرية الأفراد ويتطلع إلى حرية المجتمع. ثم أدى تطور الأزمة وما سببه تصاعد العنف السلطوي من تشريد وتهجير وتدمير إلى نشوء جماعات جديدة تعمل على تقديم الإغاثة والمساعدة على استمرار الحياة، في مجالات عديدة (الصحة، التعليم، الدعم النفسي، الإيواء...) واستطاع الناشطون المدنيون، ومن الشباب خاصة، تملّك خبرة واسعة في زمن قصير.

لا يبدو الوضع السوري القائم اليوم مبشراً باستقرار قريب، اللّهم إلا الاستقرار في العنف. لكن، لا بدّ من وقت تنتهي فيه الأمور إلى صورة ما. وأياً كانت هذه الصورة سيكون للمجتمع المدني اليد العليا في إظهارها وتكوين إحداثياتها. إن قضايا من قبيل المصالحة الوطنية والسلم الأهلي، والعدالة الانتقالية، ومراقبة الانتخابات، وحماية الإرث الثقافي... كلها ميادين ستطرح نفسها بقوة على المجتمع (إن لم يكن بعضها قد فعل)، ولا يفيدنا بأي حال انتظار الغد للتفكير بما يجب عمله. علينا التفكير، اليوم وليس غداً، ببناء المجتمع المدني القادم.

26 **حزيران** 2013

27. بين الخَيار والاختيار

تُظهِر معاينة المسار الذي اتخذته الأحداث في سورية، منذ اندلاع انتفاضة الكرامة، عدداً من المفترقات التي ارتسمت أمام النشطاء المدنيين المنخرطين فيها، ووضعتهم أمام خيارات تبدو للمراقب الخارجي وكأنها خيارات حرّة، وبالتالي يظهر الناشط وكأنه كامل الحرية في اعتماد هذا الخيار أو ذاك. لكن الواقع أن تطورات الأحداث كانت غالباً ما تأخذ النشطاء في دروب، أو تضعهم في مواقف، ما كانوا ليتخذوها، أو يناصروها، لو كانوا يتملكون حقاً حرية الاختيار.

لا نقصد من هذه المقدمة البناء على جبرية تقول بأن كل ما قام به أولئك النشطاء كان قَدَراً محتوماً، وجدوا أنفسهم أمامه مسيّرين ليسوا مخَيّرين. لا بل، على العكس تماماً، يجب علينا التأكيد على أن في الكثير من أحداث المرحلة الأولى من الثورة: مرحلة الاحتجاجات السلمية والمظاهرات والاعتصامات والإضرابات... أقدم النشطاء على اختيارات قائمة على الوعي والإدراك النابعَين من إحساس عالٍ بالولاء للوطن، ومن قناعة راسخة بحقهم المطلق في المشاركة في مصيرهم ومصير بلدهم، وفي حقهم بالعيش الكريم على أرضه. لقد وضعوا بأيديهم وبإراداتهم المبادرات والخطط والمشاريع التي فتحت عيون

الناس، وحرّكت ضمائرهم، وكان لهم قصب السبق في إطلاق مارد الثورة من قمقم الخوف المحكم.

أحد المفترقات المفصلية التي واجهت النشطاء باكراً كان ذاك الذي ارتسم حول موضوع اللجوء إلى العنف. هل يجب البقاء على سلمية الحَراك أم الانخراط في المواجهة المسلحة التي كان النظام يدفع الانتفاضة إليها بكل ما أوتي من عنف ووحشية؟ في البدء، لم يكن لخيار العنف مناصروه، وإن بدا هذا القول اليوم رومانسياً فإنه لم يكن وقتها كذلك. فالنشطاء كانوا مستعدّين لمواجهة عنف النظام بوعي، وبرواقية، وبمعرفة التكلفة التي يفترضها خيار اللاعنف المدني؛ واستعادة شريط الأحداث في الأشهر الأولى يثبت ذلك بلا التباس. لكن سياسة «العنف بلا حدود» التي مارستها أجهزة السلطة القمعية تحت شعار «الأسد أو نحرق البلد» استدرجت حق الدفاع عن النفس، على المستويين الفردي والجمعي، وانزلق الحراك قسراً في المواجهة التي وقع عبؤها على كاهل الجنود الذين واجهوا في ذواتهم، وفي عمق وعيهم، الصراع الأزلي بين الواجب العسكري والواجب الأخلاقي.

لقد كان أمام الحَراك الخيار بين الانزلاق إلى المواجهة المسلحة والبقاء على السلمية، لكن أهله لم يكن في يدهم حق الاختيار، وخاصة بعد أن أصبحت البلد ملعباً للمقامرين في اقتصاديات الحرب، وللمتآمرين على المنطقة، وللمغامرين على دروب النِعم الفردوسية المتوّهَمة.

واليوم، يرتسم أمام الناشطين مفترق جديد، قد يكون الأخطر بين كل ما واجهوه حتى الآن: هل يجب تقبّل الضربة العسكرية الغربية أم يجب رفضها؟ العقل يقول إن النشطاء المنخرطين في الحراك منذ بدايته لا يمكن أن يتقبّلوا الضربة. فهم في كل ما فعلوه كان خير الوطن ومصلحته وعزته السمت الذي مضوا فيه نحو أهدافهم، فكيف لهم أن يوافقوا

الغرب على فعلِ ما ينتقدون النظام على فعله، أعني تدمير البلاد؟. لكن العقل يقول أيضاً إن الأحوال التي وصلنا إليها تدفع بالناشطين إلى «قبول تدخّل الشيطان»، إن كان لهذا التدخل أن يخرجنا من دوامة العنف التي جُرّت البلاد إليها عنوةً. وخاصة بعد أن بات من الواضح الجليّ أن الأمل بات ضعيفاً في قيام حوار سياسي عقلاني. حوار مسؤول ينظر إلى خلاص البلاد، وليس حواراً قصير النظر لا يتطلع إلا إلى خلاص أفراد من جانب وإلى مكاسب أطراف من الجانب الآخر.

مرة أخرى إذن، يقف الناشطون أمام مفترق ترتسم فيه الخيارات لكنهم هذه المرة، وأكثر من أي وقت مضى، يشعرون بالعجز عن ممارسة حقهم بالاختيار لأن الأمر بكل بساطة خرج من يدهم، بل خرج من يد سورية بكاملها.

في مكان ما من «الجريمة والعقاب» يقول دوستويفسكي ما معناه: ليس المهم أن تضع أمام الإنسان خيارات وإنما أن تمكّنه من القدرة على الاختيار.

3 **تموز** 2013

28. ثم يأتي «العبث»

مرت الأحداث التي عرفتها سورية منذ آذار 2011 عبر منعرجات ومنعطفات عديدة نقلت البلاد من حالة الاستبداد السياسي الشمولي الذي تمارسه دولة مستقرة بقوة الأمن والقمع، إلى حالةٍ تنذر باستبداد ثقافي شامل في ظل دولة فاشلة يتحكّم بها أمراء حرب ناشئون، من جهة، وبقايا مافيات موروثة، من جهة أخرى.

تشكّل هذه الأحداث مادة فريدة للباحثين الذين درسوها أو سيدرسونها، كل حسب اختصاصه الفكري والعلمي، وحسب المناهج والنظريات والأدوات التي سيستثمرها في بحثه. ولا شك أن رفوف المكتبات ستحمل، وهي قد بدأت فعلاً بذلك، كمّاً من الأعمال التي ستعكس بتنوّعها الطبيعة المعقدة، أصلاً، للأحداث.

وإذا ما قامت تلك الأعمال بمقاربة ما يجري في سورية من منظور أدبي يعتمد على نظرية الأجناس، فأغلب الظن أنها ستتوقف عند عتبات ثلاث، تشرِف منها على ثلاث مراحل متتابعة من الحكاية السورية منذ نقطة بدايتها وحتى ما آلت إليه اليوم.

1. العتبة الأولى تطل على مرحلة يمكن وصفها بالمرحلة الملحمية. تتمثل هذه المرحلة بالشجاعة الفريدة التي أبدتها جموع من السوريين

كسرت قمقم الخوف، وقامت بمظاهرات واعتصامات للمطالبة بالحرية، متحدية آلة القتل المسلطة عليها من كل صوب. في المشهد الملحمي تبرز بطولة الأفراد وهم يحققون أعمالاً تُسبَغ عليها صفات العظمة والإعجاز، كما تبرز المبالغات الرقمية التي تُضخّم أعداد المشاركين بالفعل الملحمي لتخلق لدى المتلقي مشاعر الإعجاب والانبهار.

في هذه المرحلة تحوّلت الانتفاضة إلى ثورة شعبية لها، من جهة، سماتها المشتركة مع أي ثورة في العالم، ولها، من جهة أخرى، سماتها الخاصة التي فرضتها ظروف سورية والإقليم والشرط التاريخي.

2. العتبة الثانية هي التي تنظر إلى المرحلة التي يمكن وصفها بالمرحلة التراجيدية. تميّز هذه المرحلة بشكل خاص ديناميكية مأزقية دخلت فيها الثورة، من حيث لا ترغب، في حرب داخلية. في هذه المرحلة تعسكرت الثورة بسبب الخيار الأمني للنظام من جهة، وبسبب انفتاح الأرض السورية أمام وباء التطرف الجهادي من جهة ثانية. في المشهد التراجيدي، يبدو الوضع الذي وُجِد فيه الحراك وضعاً بدون مخرج. وتبدو الشخصيات المشاركة في الفعل التراجيدي بمثابة أبطال يؤدون واجبهم وهم مرغمون على التعايش مع فكرة الموت المحتمل. في هذا السياق، تظهر الصفات الثلاث التي تميّز البطل التراجيدي: الشجاعة والإقدام أولاً، التضحية والفداء كرمى القيم السامية ثانياً، والنقاء الأخلاقي الذي يدفع به إلى خوض حرب يعرف بكامل وعيه أنها حرب بلا مخرج ثالثاً.

3. العتبة الثالثة هي التي تنفتح على مشهد الخراب والموت والحزن العميم، إنها المرحلة المأساوية بامتياز. في هذه المرحلة تتلاشى البنية التراجيدية التي تضع الفاعلين أمام مصير لا يطمحون إليه لكن لا مفر منه. ويتحوّل الأفراد إلى شخصيات تقوم بحربها بقناعاتها وبكامل حريتها ووعيها. الموت في هذه المرحلة ليس احتمالاً غير مستحب بل

يصبح فعلاً مطلوباً، يصبح قتلاً تسمو دلالته طرداً مع درجة الوحشية المتبعة في تطبيقه. والقيم الأخلاقية تتلاشى لصالح حسابات الحرب. هنا، لا ينتهي مصير بطل المأساة إلى القدر الذي كتبته عليه قوة ذات إرادة خارجة عن إرادته، بل يصبح هو فاعلاً ومشاركاً وصانعاً لقدره وقدر الأرض التي يحارب عليها. ويمثل هذه المرحلة في الواقع تواجد كتائب، موزعة بين أطراف الصراع، مقاتلة مرتزقة استؤجرت، أو دُعيت، أو أُرسلت، أو نُقلت... لا تهمّ تسمية الفعل بل ما يهمّ هو الفعل نفسه: كتائب موجودة على أرض الوطن لوضع اللمسات الأخيرة على المأساة.

في مرحلة قادمة، وبعد أن ينجزوا المأساة، سيجلس المتقاتلون منهكين متسولين للحل المجهّز سلفاً. عندها، إن بقي لدى بعضهم شيء من الضمير، سينظرون إلى أرض الخراب ويتساءلون في قرارة أنفسهم: لم فعلنا كل ذلك؟ عندها تبدأ مرحلة «العبث».

22 **أيلول** 2013

29. صورته في المرآة

رجل الأعمال السوري الذي وجد صباحاً زجاج سيارته الفاخرة مهشّماً، ومصابيحها مكسورة، لا يقتنع بإمكانية حدوث أشياء كهذه صدفةً. سؤاله الذي يردده أمام أصدقائه يشير بوضوح إلى مقاصده: لماذا وحدها سيارتي ذات اللوحة السورية هي التي أصيبت؟ لماذا لم تصِب الصدفة ذاتها السيارات اللبنانية المركونة حولها؟

البَيض الذي «هطل» ليلاً على السيارات ذات اللوحات السورية، في الضاحية الجبلية من بيروت، لم يكن من فعل عمال محطات غسيل السيارات الذين حُرموا هذا الصيف أيضاً من إكراميات السائحين العرب الأثرياء فظنوا أنهم، بفعلتهم هذه، سيرغمون المصطافين السوريين على غسيل سياراتهم ذاك اليوم.

السيدة التي كانت تفسّح كلبها صباح الأحد لم تشح بوجهها وتبتعد مبرطمة لأن كلب الصبية الرشيقة، التي كانت تقوم بالواجب الصباحي ذاته، يقل نظافة أو أدباً عن كلبها، وإنما لأنها حين حذرتها من «السوريين الذين أصبحوا في كل مكان والذين سمعت أنهم يغتصبون الفتيات» قالت لها إنها هي أيضاً سورية.

هي أمثلة ثلاثة من عشرات الحكايات التي يعيشها السوريون

الميسورون الذين لا يقيمون في لبنان عالة على «المعتّرين» اللبنانيين، كما كانت تقول سيدة على أثير إذاعة صباحية، بل يساهمون، ليس تكرّماً ولا جزية، من خلال الأموال التي نقلوها إلى لبنان في تعويض جزء من خسارته بسبب غياب الموسم السياحي.

وهي أمثلة ثلاثة من مناطق تسكنها شرائح ميسورة من المجتمع اللبناني. هم في الغالب من أصحاب المهن الحرة الذين يستخدمون جيشاً من العمال السوريين «المعترين» حقاً. ليس لأنهم فرّوا خارج وطنهم هرباً من الموت فحسب، بل لأنهم يعملون في شروط من غياب الحد الأدنى من الضمان والحماية.

أُصيب «أبو علي» ناطور البناء بذبحة قلبية، فأسعفه جاره إلى المشفى القريب، ولدى سؤاله عما إذا كان مسجّلاً في الضمان قال: «من هذا «المعلم» الذي سيرضى بأن يسجّل عاملاً سورياً في التأمينات، ويتكلّف عليه، ما دام يستطيع أن يجد آلاف العمال ممن يرضون بالعمل مقابل السكن فحسب؟».

في جلسة في بيت من غرفتين يسكنهما ستة عمال يعملون جميعاً في ورشة بناء، دار الحديث عن ظروف الحياة، وكانت لدى كل منهم حكاية عن مفاجأة يوم القبض حيث لا يحصل أي منهم على كامل المبلغ المستحق لساعات أو أيام عمله.

وحول طاولات المقاهي تتناثر الحكايات عن أصحاب الشقق الذين يرفعون قيمة الإيجارات، العالية أصلاً، والخيالية أحياناً، لمجرد معرفة أن طالب الإيجار سوري.

من نافل القول إن الحقبة السورية من التاريخ اللبناني المعاصر حملت الكثير من الظلم على لبنان، لكن من يجرؤ على إنكار أن مصدر الظلم كان واحداً في البلدين، وأن معاناة السوريين منه لم تكن أرحم، وليس فقط لأن «ظلم ذوي القربى أشد مضاضة».

من نافل القول أيضاً إن الصراع الدائر في سورية قد قذف بمئات الآلاف من السكان إلى الخارج، منهم ما يزيد عن المليون في لبنان وحده. وهذا يشكّل عبئاً صعب التحمّل في بلد يعاني أصلاً من ضائقة اقتصادية ومن مشاكل إدارية وسياسية. لكن ما العمل إذا كانت الحياة غالية والحق فيها مقدساً. وما العمل إذا كانت الجغرافيات الطبيعية والبشرية والسياسية قد أوجدت تداخلات بين المواطنين من الدولتين تجعل من البديهي لجوء بعضهم عند بعض وقت الشدة. ألم يفعل اللبنانيون ذلك أكثر من مرة، وخلال سنوات طوال؟

يمثّل الوجود السوري في لبنان، دون أي شك، مشكلة كبيرة، لكن يبدو أنها أقل بكثير مما يضخّمها الإعلام. لكن هذا الوجود يشكّل أيضاً صورة إضافية عن تخاذل المجتمع الدولي وكذبه ونفاقه، إذ أن هذا المجتمع هو المسؤول عن هذه المشكلة: مسؤول عن عدم إيجاد حل للوضع السوري، مسؤول عن السماح للنظام بإيصال البلد وأهله إلى هذه الحال ومسؤول أخيراً عن إغاثة اللاجئين ومساعدة الدول المضيفة وأولها لبنان على تحمّل أعباء استضافتهم.

لكن أيضاً، ورغم قناعتنا بموضوعية تذمر بعض المواطنين، لا نستطيع إلا أن نقول لصاحب الزي الرسمي الذي كان ينهال ضرباً على (معتّرٍ) سوري على النقطة الحدودية ويشتمه بالتسلسل التالي: يا كلب، يا حقير، يا سوري... لا نستطيع إلا أن نقول له، وبعيداً عن الكلام في حقوق الإنسان، أن يعود إلى تاريخه الخاص ليجد أن الروابط العضوية بينه وبين ضحيته تجعله، شاء أم أبى، صورة مطابقة له، حتى ليكاد يكون صورته في المرآة.

2 **تشرين الأول** 2013

30. الرأرأة السورية

يدل مصطلح الرأرأة في لغة الطب على عَرَضٍ سريري يشير إلى خلل في الأجهزة التي تتحكم بحركة العين، ويعود إلى إصابات مرضية مختلفة. يتصف هذا العرض بحركة اهتزاز لا إرادية للعين تجعلها تبتعد ببطء عن موضعها المركزي لتعود بسرعة إليه، وهكذا دواليك. وتسبب الرأرأة درجة من الخلل في الرؤية.

بعيداً عن الطب، كانت تُلاحَظ لدى السوريين في سنوات حكم عائلة الأسد، وخاصة زمن حكم الأب، حركة لا إرادية يقومون بها بعيونهم، وغالباً ما كانوا يتابعونها بكامل وجههم، حتى أصبحت كالعادة المكتسبة التي تميّزهم عن سائر البشر. وتتميّز هذه الحركة بانحراف كرة العين عن محورها لتتجه نحو النوافذ أو الأبواب، في الحيز الذي يجمعهم، فور نطقهم، أو نُطق أحد مُجالِسيهم بكلمة أو إشارة تنال من القائد أو الحزب أو أجهزة الأمن ومن ينتمي إليها.

لم تكن هذه الحركة تعبيراً عن خلل في أجهزة التحكم بعضلات العين بقدر ما كانت تعبيراً عن قوّة أجهزة التحكم في حياة المواطن السوري، وشدة التصاقها به، ويقظتها في مراقبة درجة انقياده للضوابط التي وضعتها له. لقد بلغت قوة تلك الأجهزة، ونعني الأجهزة الأمنية

طبعاً، درجة من التغلغل في حياة المواطنين أنه بات يتخيّل أن ثمّة شبحاً يقف خلف كل مَنفذ في جدار ليترصّد الكلام، ويتصيّد الهفوات وزلّات اللسان. بل كان ذاك الشبح يقترب بعض الأحيان ليسكن في الزاوية الوحشية من العين، فما أن ينطق المرء بكلمة قد لا تتفق مع الضوابط حتى تنحرف العين نحو ذاك الشبح مسترضية، مسترجية، خائفة.

مع بدء الانتفاضة، وطوال مرحلة تحوّلها إلى ثورة، حافظ قسم من المواطنين على شبحهم خوفاً من شعورهم بالضياع بعد أن صار مَعْلم ارتكازهم في الوجود؛ وشحذ قسم آخر سكينه واستنفر للدفاع عنه لأنه اعتقد أن وجود الشبح ضمانة لبقائه. لكن القسم الأكبر، أي أولئك الذين انخرطوا عملياً أو فكرياً أو ميدانياً أو عاطفياً في الثورة، أو ناصروها، فقد تحرروا من طغيان الأشباح الجاثمة على نواصي حيواتهم وأرغموها على التلاشي، فتلاشت، بالمعنى الحقيقي لفعل تلاشى: أي أصبحت رويداً رويداً لا شيء.

غير أن أشباحاً جديدة بدأت تظهر وتتغلغل في ثنايا الأنفس، بالتوازي مع انفلاش ساحة الصراع على العنف العاري الذي تشترك في ممارسته قوات الاستبداد الرسمي، مع قوات الإرهاب الديني. أشباح تنطلق من الكثير مما يتسرّب خلسة، والأكثر مما يُعرَض علناً، عن وحشية القوى ذات الرايات السود التي تسعى للهيمنة على المجتمع بأفكارها المنحدرة من لحظات غير مجيدة في تاريخ المنطقة.

تحتكر داعش (دولة الإرهاب في العراق والشام) حصة الأسد من الأخبار المطلقة لأشباح الخوف. تنطلق هذه الأشباح من صور أبطالها المتباهين بالرؤوس المقطوعة يرفعونها بأيديهم، ومن فيديوهات إعدام طفل رفض أن ينصاع لأمر أحد رجالاتهم؛ وتنطلق من فتاوى شيوخهم المغرقة في ابتذالها حول شكل اللباس والتدخين والرقابة على ما قد

يتلفظ به اللسان، ومن حكايات تصرفاتهم المنسوخة عن تصرفات المطاوعين السعوديين التي لم يسبق للمجتمع السوري أن عرفها حتى في أكثر أيامه ظلماً وكبتاً.

هذه الأمور وغيرها تشكّل عملية إعادة بناء لثقافة الخوف التي استطاع النظام تشريبها للسوريين قبل أن يستفيقوا وينتفضوا. لن يفيدنا الآن أن نناقش إن كان الخوف هو ذاته أو أن بعضه يفضّل بعضه الآخر. ما يهمّ هو أن المواطن السوري، في الحالتين، يخسر روحه، ويضيّع حقوقه، ويفقد القدرة على الرؤية الصحيحة، ويتحوّل إلى كائن خائف تسبق حركة عينه، نحو النوافذ والأبواب والأشخاص الغرباء، حركة لسانه. وتعود الرأرأة كسمة ملازمة لشخصيته.

يقول الباحثون في طب العيون إن ثمة أربعين نوعاً من الرأرأة، ربما يجب اليوم إضافة نوع جديد: الرأرأة السورية.

15 **تشرين الأول** 2013

31. عدوّ عدوّي...

كان يبدو واضحاً في الأشهر الأولى لقيام الانتفاضة السورية أن موازين القوى الفاعلة على الأرض تميل يوماً بعد يوم إلى جانب الحراك المدني، رغم الغياب المطلق لأي تناسب بين القوة العسكرية، المعدومة آنذاك ولوقت ليس بالقصير، لهذا الحراك والقوة اللا متناهية للمنظومات العسكرية، وشبه العسكرية، العاملة تحت إمرة النظام. لكن ثمة سلاحاً افتقده النظام وامتلكه الحراك وكان بمثابة عامل التثقيل الذي جعل كفة هذا الأخير راجحة باضطراد: إنه سلاح الحق بكل ما يحمله من أبعاد أخلاقية، أو معنوية، أو رمزية. فالانتفاضة كانت ضد الاستبداد وما ينتجه من إذلال مستمر للمواطن، وهذا ما جعلها انتفاضة للحرية. والانتفاضة كانت ضد الفساد وما يسببه من تهتك في أخلاق وهذا ما جعلها انتفاضة للكرامة.

هذا السلاح هو ما كان يحرّك ملايين المواطنين في المظاهرات والاعتصامات رغم العنف المتصاعد للنظام وأجهزته. وهو ما كان يدفع بالعسكريين، الرافضين للامتثال للأوامر بمواجهة المظاهرات بالرصاص، إلى الانشقاق، وهو ما كان يجمع رأياً عالمياً مناصراً للانتفاضة ورافضاً للنظام ولآلياته القمعية، وهو ما كان يقضّ مضجع

النظام لأنه يعلم، ليس لذكائه وإنما لأنها من بديهيات السياسة ومن تعاليم التاريخ، أن السلاح لا يقوى على احتواء روح المقاومة عندما تتملك الشعب.

والحال هذه، كان لا مفرّ أمام النظام من العمل على أمرين: سحب الحراك من أرض النضال السلمي إلى أرض الصراع المسلح، من جهة، واختلاق عدو على شاكلته، يشبهه في توحشه وتغوّله، من جهة أخرى.

تكفّل العنف العاري الموجّه إلى المتظاهرين والمعتصمين، وإلى حاضنتهم الشعبية، وإلى الناشطين السلميين، بإنجاز الأمر الأول تبعاً لمتوالية ردود الفعل التصاعدية. ولم تقصّر قوى خارجية، ومنها قوى سورية تعيش في الخارج، في سكب الزيت على النار لمآرب وغايات لم تكن مبيّتة بل مُعلنةً في وضح النهار.

أما الأمر الثاني فقد كان العدو جاهزاً في الحقيقة، وخلال سنوات طوال، لم يكن النظام بعيداً عن المساهمة في تغذيته وتشغيله، لكن كأداة يتلاعب بها ويوظّفها في سياسة تصدير العنف. وهي السياسة التي سعى من خلالها إلى زعزعة استقرار الإقليم المحيط لاكتساب مظهر النظام المستقر (لطالما قرعت أبواق النظام «الأكاديمية» آذاننا بأن سورية من أكثر الدول أماناً في العالم، دون أن تشير البتة إلى السياسات الخارجية والداخلية التي كانت تحقق ذاك الأمان الصوَري). والشواهد على الأمر ليست بقليلة، بدءاً من دور أجهزة النظام في لبنان وانتهاء بعمليات تسهيل عبور «المجاهدين» إلى العراق، مروراً برعاية بعض الأطراف الكردية، والقائمة تطول.

ومع بداية الانتفاضة قام النظام بالإفراج عن عشرات آلاف المعتقلين (باعتراف الأسد)، كانوا في غالبيتهم العظمى من المتورطين بجرائم تهريب السلاح والمخدرات، الذين سرعان ما عادوا إلى

نشاطهم التهريبي الذي يصعب على المرء تصديق ازدهاره وتضخمه بدون مشاركة من الأجهزة المسؤولة عن مراقبته وضبطه. وكان من بين المُطلق سراحهم جهاديون، من وهابيين وغير وهابيين، سرعان ما وجدوا الطرق اللازمة لتشكيل بنى جهادية مقاتلة، مستفيدين من رعاية تنظيم القاعدة وتفرعاته، ومن رغبة الحكومات المتصارعة مع الجهاديين بالتخلص منهم في بلادها، ومن تمويل عدد من شيوخ النفط السلفيين، ومن تساهل الرقابة الحكومية، كي لا نقول تواطؤها، في تواجد هذه البنى.

ساهمت هذه العوامل مشتركة في ظهور الوحش الجديد الذي لن تكون فائدته في محاربة النظام أكبر منها في منح هذا النظام شكلاً من أشكال الشرعية الدولية المتمترسة وراء الخوف من انتشار الإسلام الجهادي. وهكذا صار لدى النظام، عدو الشعب، عدوٌّ صنوٌ له، لا يقل عنه شراسة، بل وتتفوق أفعاله في وحشيتها على وحشيته. عدو لا يوقف خراب البلد بل يزيد من خرابه، ناهيك عن أنه يمنح النظام المبرر لحرقه.

أمام حلبة المصارعة بين هذين العدوين، يقف الشعب السوري المنتفض من أجل كرامته، الرافض للاستبداد وللإرهاب، المنهك مما أصابه من مآسٍ وشرور، المحبط لمشهد الأفق المظلم، يقف ليقول: ليس صحيحاً أن عدو عدوي هو صديقي، إن عدو عدوي هو اليوم عدوي أيضاً.

13 **تشرين الثاني** 2013

32. حرّاس الذاكرة

إلى مازن ورزان وسميرة ووائل وناظم

قد يبدو صحيحاً أن الحرب «نار تجلو صدأ الشعوب»، وقد يبدو صحيحاً أنها «شر لا بدّ منه» لكي تنبعث الأمم من رمادها، لكن ليس صحيحاً أنها هذا فحسب، لأن الحرب هي أيضاً، وقبل كل شيء آخر، موت ودمار وخراب. قد تشق الحروب طريقاً لجديد آتٍ، وقد تهيئ لقيامة ما، لكن لا هذه القيامة ولا ذاك الجديد يقدَّر لهما أن يكونا بدون الويلات التي تنثرها الحروب.

الحرب انتهاك للإنسانية وللإنسان، ونخص هنا الحرب التي تقوم بين أبناء البلد الواحد، سواء أكانت حرباً داخلية (كما هي الحال في سورية) أم حرباً أهلية. كل ما في الحرب فعلٌ جرمي. وكل من ينخرط فيها، شريك، بهذا القدر أو ذاك، في جريمة. من المفارقة المؤلمة أن الكثير، بل غالبية، أولئك الشركاء هم ضحايا. ليسوا ضحايا وقع عليهم الانتهاك فقُتِلوا أو جُرِحوا أو شُوّهوا فحسب، بل هم ضحايا لأنهم أُرغموا أو اضطروا أو أُجبِروا على المشاركة في القتل والجرح والتشويه. الذين تحوّلوا إلى أدوات قتل في يد نظام مستبد أحمق هم ضحاياه أولاً، والذين

اضطروا لحمل السلاح دفاعاً عن انتفاضة كرامتهم هم ضحايا النظام مرتين: مرة لأنه اضطرهم إلى حمل السلاح ومشاركتهم في المقتلة، ومرّة لأنه قتلهم حقاً، والذين تحوّلوا إلى مرتزقة وأدوات قتل في يد إرهاب ديني أعمى مموّل هم ضحايا أمراء الحرب وسدنة الجهل والظلامية. الحرب آلة حمقاء تصَنِّع ضحايا ليقوموا بدورهم بصُنع ضحاياهم لدى الطرف الآخر. وفي الحرب الداخلية، الكل هو الآخر. حيث لا منطق يبيح لطرف أن يكون الـ(نحن) المطلقة التي تتجسد فيها روح الوطن فتنال شرعية القتال باسمه.

الحرب الداخلية مصنع للضحايا يديره مجرمون. وهؤلاء الأخيرون قلّما ينالهم العقاب الذي يستحقونه. يُخطَف الناس ويعذّبون ويقتلون بأمر منهم، وهم يقبعون في دشماتهم ومراكز قياداتهم يتابعون على الخرائط الباردة حركة البيادق المرمية في الميدان. فإن انتصر طرف منهم أرّخ لما كان بالشكل الذي يريد، بينما تغيب الضحايا في جبّ النسيان. وتُنسى أسماؤها وأسماء قاتليها.

من هنا كانت فكرة توثيق الانتهاكات في زمن الحرب فكرة عظيمة، لأنها، من جهة، تحفظ للضحايا ذكراهم، ومن جهة أخرى تقيم الحجة على الشركاء في الجرم بدءاً من الذي خطط إلى الذي أعطى الأمر بالتنفيذ إلى الذي نفّذ. وتكون الانتهاكات المسجلة وثيقة لا بدّ منها لكل بناء لسيرورة عدالةٍ انتقالية. من هنا يلد حقد المسؤولين عن الإجرام على النشطاء الحقوقيين، وعلى كل مؤسسة مدنية تعمل في مجال توثيق الانتهاكات. والأمثلة على ما عاناه ويعانيه النشطاء في مجال حقوق الإنسان وتوثيق انتهاكات هذه الحقوق في سورية لا تعد ولا تحصى. ففي بداية الانتفاضة ضد نظام الاستبداد لاحقت الأجهزة الأمنية هؤلاء النشطاء وحبستهم. ومنهم الصحفي «مازن درويش»، والمحامي «خليل

معتوق». أما بعد انحراف الثورة وسقوط غالبية المناطق الخارجة عن سلطة النظام تحت سطوة الإرهاب الإسلامي الظلامي فقد عاد الوضع شبيهاً بما كان عليه قبل الانتفاضة، بل وبشكل أكثر بشاعة. لكن هذا لم يمنع النشطاء، رغم كل الصعوبات، من الاستمرار بتوثيق الانتهاكات التي تمارسها القوى المتسلطة الجديدة. وبالطبع لم يرق هذا لأمراء الحرب الملتحين فبدؤوا بعملية كمّ أفواه النشطاء مثل رزان زيتونة ورفاقها الذين يكاد يمر أسبوع على اختطافهم على يد «ملثمين».

في سورية، وبين الاستبداد السياسي الذي يقتل باسم قوّة من الأرض، والإرهاب الديني الذي يقتل باسم قوّة من السماء، يسقط ضحايا أبرياء يتهدد النسيان أسماءهم وأشكالهم ولون وجوههم. لكنهم لن يُنسوا مادام هناك ناشطون وناشطات يوثّقون للانتهاكات ويقفون، مثلهم، حرّاساً للذاكرة.

15 **كانون الثاني** 2013

33. ومع ذلك فهي... تثور

تدخل سورية عامها الرابع ثورة. «العمر كله» كما نقول احتفاءً بميلاد مجيد. في البدء تماحكنا وتناظرنا وتعاركنا حول شرعية التسمية. أهي ثورة؟ أم انتفاضة؟ أم حراك ثوري؟ أم حرب أهلية؟ أم مؤامرة كونية؟... إلى ما هنالك من تسميات أطلقها بعضنا، ونحن منهم، تأسيساً على إرادوية تمتنع عن إسقاط المشتهى على أحداث لا تشي بحضور ذاك المشتهى، وأطلقها بعضنا الآخر تبخيساً لفعل تغيير مذهل لم يدخل ضمن تخوم خيالاته وتصوّراته، وأطلقها بعضنا الثالث تهرباً من ضريبة ما كان لها إلا أن تُستحق طال الزمان أو قصر، وأطلقها آخر رابع تخوفاً من اهتزاز بنية نفعية تشرنق فيها وبات كل من يشير إليها بالنقد خائناً وعميلاً و«برغياً» في آلة المؤامرة المحاكة على وطن تقزّم حتى تطابق مع جسد نظام مشوّه خارج التاريخ...

تعددت الأحكام والواقع واحد.

والواقع هو أن ما كان انتهى، وأن شيئاً جديدا آتٍ لا محالة.

انتهت حقبة جعلت من السوريين كائنات خائفة ترتجف إن حلمت بحرية. انتهى زمن تختزل فيه مواطنية المواطن إلى التصفيق والرقص والتهريج احتفاءً بشعاراتٍ مقعّرة فُرّغت من كل محتوى، وغدت إشارة

حسية لإطلاق منعكس الثغاء الجمعي الجدير بقطيع. انتهى عهد الفرجة، حيث بات المواطن متفرجاً على الفساد باسم القانون، وعلى التسلط باسم الدستور، وعلى القمع باسم حماية الأمن، وعلى الخراب باسم التطوير والتحديث.

انتهى ذاك الزمن ودخلت البلاد في مخاض التغيير. ويا له من مخاض عزّ نظيره في حكايات الشعوب الحبلى بالشوق إلى الحرية، والمسكونة برجاء القيامة. يا لها من جلجلة يقف إزاءها التاريخ مشدوهاً، منقطع الأنفاس. يا لها من ملحمة تقف البشرية دونها خجلة من نفسها، مسربلة بالعار.

لم يكن المخاض كرنفالاً يحتفي بفرح الشعوب الطفلي وهي تتلبس الجديد. ولم يكن تنويعاً، بنسخة سورية، لسردية انتفاضةٍ لشعب مقهور يستيقظ نحو خلاصه. لكنه كان النموذج الفريد لأمرين اثنين: شيطانية النظام ومأساة الشعب.

تمثلت شيطانية النظام في إصراره على حفر هاوية بلا قرار تجذب، كثقب أسود، كل ما يتفاعل في المحيط، بما في ذلك النظام أيضاً. كأن لسان حاله يقول: لن أسقط وحدي، بل سأسقِط الكل معي. إن كانت النهاية فلا أحد سينجو. وإن كان ثمة ناجون، ولو محطمين، فسأكون بينهم، محطماً مثلهم، أو ربما أقل. شيطانية اختزلها شعار «الأسد أو لا أحد».

وتمثلت مأساة الشعب في ما لحقه من خراب روحي واجتماعي وحضاري، لكن أيضاً في حَيرته أمام ما انتهت إليه شيطانية النظام. وثمة عناوين كثيرة لهذه الحيرة: من أين جاءت تلك الوحشية التي عصفت بكل ما كان يميّزنا من رحمة وكياسة؟ كيف لنا أن نعيد بناء نسيج وجودنا المشترك؟ أين المخرج، ونحن نرفض ظلم النظام ولا

نريد ظلامية التشدد الديني؟ ثم من نحن في نهاية المطاف؟ هل سنعود مواطنين في بلد له اسم وهوية وتاريخ أم سنستفيق على حال نكتشف فيه أن كل ما ظنناه لم يكن سوى وهم، وأننا أسرى لأوهام؟

ربما تكمن عبقرية المخاض هنا تحديداً، أي في طرحه لأسئلة لا حل لها في بقاء الحال القديم، وفي وعده القاطع بجديد لا يترك مجالاً لشكّ بقدومه، حتى لو لم يرسم ملامح هذا القادم الجديد. في هذه السيرورة من القديم المنتهي نحو القادم المبتدئ ترتسم حياة الثورة.

سمّوها ما شئتم، انتقدوها كما أحببتم، اخدعوها، راودوها، تحايلوا عليها، احفروا الأرض تحت أقدامها، لوّنوها، العنوها، افعلوا ما شئتم.. فهي، وبمحاكاة لما قاله غاليليو غاليليه لمرهبيه: ومع ذلك فهي تثور. هي باقية، وهي أصلاً لم تبدأ إلا لتبقى، حتى تصل إلى ما يريده أهلها: حياة كريمة بلا ظلم ولا ظلامية.

سورية تدخل عامها الرابع ثورة.. كل عام وأنت بخير يا وطني.

7 آذار 2014

34. مقاربتان بصريتان للنزوح السوري

ذكر الموقع الرسمي للمفوضية السامية لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة (يوم الجمعة 14 آذار 2014) أن عدد النازحين قسراً عن منازلهم في سورية تخطّى التسعة ملايين نازح، أي ما يقارب 40% من عدد سكان البلاد، مما يجعل من سورية أكثر دول العالم شهوداً للنزوح القسري. وتقدر نسبة المهجّرين (أي النازحين خارج الحدود) من هؤلاء بحوالي الربع تقريباً.

بعيداً عن الأرقام المخيفة لجيوش النازحين والمهجّرين هذه، ثمّة حكايات وقصص عديدةٌ عددَ الناس المتشاركين بصفات نازح، لاجئ، مهجّر، مطرود.. لكل إنسان اسمه، وإحداثياته الخاصة، وحكايته الحميمة. وأخطر ما في دنيا الإعلام المهتم بقضايا المصائب والويلات الجمعية أنه يغيّب هذه الحكايات تحت أنقاض الأرقام، وخلف وهم الصورة المثيرة. ومن حين لآخر، تظهر بعض الأعمال التي يبحث فيها محترفون أو فنانون أو ناشطون عن تلك الحكايات الخاصة ليخرجوها من قيعان الأرقام الرمادية ويضعوها أمام مجاهرهم الفنية كشهادات أنموذجية عن الحقيقة التائهة في تدافع الأحداث.

نتوقف في هذا النص أمام عملين من بين هذه الأعمال: الأول هو

«نحنا مو هيك» للمخرجة اللبنانية «كارول منصور» وقد عرض لأول مرة في السابع من شهر تشرين الأول الفائت، في صالة سينما في بيروت، أما الثاني فهو فيلم «آهات الحرية» الذي أغفل اسم مخرجه وأسماء الفريق التقني أثناء عرضه على قناة الجزيرة، وكان عرضه الأول يوم 12 آذار.

الفيلمان يتشاركان في توجههما الإنساني. حيث ينتخب المخرجان نماذج من المهجّرين ممن يمكن القول إنهم ينتمون إلى شرائح متنوعة من ذاك المجموع الهلامي من المجتمع الذي يطلق عليه عادة اسم الطبقة الوسطى. تحدد «منصور» نماذجها من النساء في حين ينتقيها مخرج الفيلم الثاني من الجنسين دون تمييز. لكن النماذج في الفيلمين تشترك في كونها ذوات حكاية. ويكاد مخرجا الفيلمين يتشاركان في الأسئلة المفتاحية ذاتها لفتح أبواب الحكاية: سؤال الماضي/ ما قبل الثورة، وسؤال الخروج، وسؤال الراهن أو المنفى. لكن ثمة اختلافاً كبيراً بين الفيلمين في بنيتهما مما يبرز التباين بينهما رغم التماثل، لدرجة التطابق تقريباً، في الموضوع وفي استنطاق الحكاية.

تعتمد «منصور» بنية هندسية صارمة لعملها تتميّز أولاً بتمركز الأطر المحيطة بالحكاية. فالعمل ينفتح بداية على مقدمة عامة محكية بصوت خارجي ومدعومة بصور فوتوغرافية ثابتة من أرشيف المفوضية السامية لشؤون اللاجئين، ثم تنتقل إلى إطار أصغر لتحكي عن مأساة النزوح السوري، مع لقطات عامة عن المخيمات، ثم تنتقل إلى إطار أصغر أيضاً تقدم فيه الشخصية صاحبة الحكاية، لتستقر أخيراً على الحكاية ذاتها مروية بصوت صاحبتها. وتتميّز ثانياً بالتقطيع الزمني لمدة الفيلم إلى خمس حصص تكاد تتساوى في مددها. كل حصة مهداة إلى واحدة من الشخصيات لتروي فيها قصتها، «دراماها» الخاصة، متكاملة، مما يتيح لها قوة الحضور ويتيح للمشاهد وقتاً كافياً لتشبع الحكاية. وتتميّز ثالثاً

باستخدام كاميرا حيادية، باردة، تتلاشى أمام الشخصية حتى تكاد أن تذوب.

أما مخرج «آهات الحرية» فقد اعتمد بنية أكثر قلقاً لفيلمه. حيث لم يضع أي إطار للحكايات، لأن فيلمه هو الحكاية، وما الأشخاص الذين استنطقهم (وكاتب هذا النص واحد منهم) إلا أدوات للفيلم، وليس الفيلم أداة لهم كما عند «منصور». الحكاية في الفيلم هي حكاية المنفى. والمنفى حكاية الجميع فلا حاجة لمن يقدّم لها أو يؤطّرها. هكذا ينفتح الفيلم على الكلام وينتهي بالكلام بلا تمهيد أو استخلاص. فالمخرج لا يبحث عن نماذج تعيش حالة المنفى وإنما يبحث عن المنفى كما يتمثل في الإنسان. والمنفى تشتت، وقلق، واضطراب لذلك جاءت بنية الفيلم مثل ثوب الرقع (باتشوورك) لكل قطعة لونها وحجمها وأصلها، وهي حين تتراصف مع بعضها فلأن المخرج الذي يلهو بها، كطفل يلهو بقطع من نسيج تكوّمت أمامه، أراد لها هذا النسق من المونتاج. أما الكاميرا فهي لعوب هي الأخرى، فتُقدم وتتراجع وتواجه وتخاتل لتثبت وجودها كحكواتي بصري يروي لنا قصة المنفى.

في «نحنا موهيك» الشخصية هي الحكاية، أما في «آهات الحرية» فالمنفى هو الحكاية، وفي الحالتين نجح المخرجان، كل من وجهة نظره، وكل حسب حساسيته، في مقاربتهما البصرية لمأساة النزوح السوري.

27 آذار 2014

35. سخرية الرئاسة السوداء

موسم الرئاسات العربية المتجددة يقدم مشهداً مصبوغاً بالسخرية السوداء الفريدة في عالم السياسة. فالصورة المنقولة لهذه الرئاسات تبعث على الضحك، لكنه ضحك قاس ومرير ويائس لأن مصدره أمر خطير في حياة البلاد وأهليها. ومن هذا التناقض، بين خطورة الحقيقة وبلاهة الصورة، تنبثق السخرية السوداء كشكل من أشكال دفاع الناس العاديين عن أنفسهم، وكشكل من أشكال التماسك الذاتي أمام عبثية الأقدار السياسية لهذه البلاد.

فمن صورة زعيم يعيد تنخيب نفسه ويعجز عن إكمال خطابه الرئاسي وهو على كرسيه المتحرك، إلى زعيم يبدأ تمهيده للانتخابات بأحكام إعدام لمئات المعارضين وتعمل أجهزته على تحويل صورته من عسكري إلى «معبود جماهير»، حتى لتظن وأنت تسمع خطبه أنك أمام فيلم رومانسي مصري من الخمسينيات، إلى رئيس شبح لا ترتسم ملامحه، فيفرّغ المقام من صاحبه لغايات حزبية تضع مصالح الجماعات فوق مصالح الوطن، إلى رئيس مستبدٍ يبالغ في مسرحة إعادة انتخابه ليصبح كل إجراء تتخذه أجهزة دولته التسلطية مصدراً لسخريةٍ سوداء مضافة.

كل هذه الأمثلة الغرائبية تشهد على الحالة العبثية التي آلت إليها أوضاع الرئاسة في هذا العالم العربي، لكن يبقى المثال السوري، وهو المثال الأخير بين المذكورة أعلاه، أكثر تلك الأمثلة مبعثاً للسخرية السوداء. بدءاً من قرارات مجلس الشعب، الذي يعتقد نفسه ممثلاً لشعب أين منه هؤلاء الدمى الذين يليق بهم قول معروف الرصافي: «في كل كرسي تسنّد نائب متكتف أعمى أصم أخرس». إلى مهزلة الترشيح والتعددية التي انتهى إخراجها إلى تسمية ثلاثة مرشحين على مبدأ «العروض الثلاثة» الذي تشترطه المؤسسات لكل مناقصة معروفة نتائجها قبل أن تُفَضَّ مغلفاتها. إلى الرقابة على الانتخابات التي أبدى المجلس الأعلى للبرلمان الروسي موافقته على المشاركة فيها بناء على دعوة من رئيس مجلس الشعب السوري في مبادرة تذكّرنا بالمثل الشعبي «شهّد القط ذنبه». إلى حملة الأسد الانتخابية، وهنا الطامة الكبرى، التي اختيرت لها كلمة (سوا) كشعار يريدونه توافقياً على كلا الصعيدين الداخلي والدولي، على الأقل كما تحاول أن تظهره الماكينة الإعلامية الرسمية وتردده كتابات المحللين الموالين للنظام، وخاصة في بعض الصحف اللبنانية.

إن الوطن النازف من الوريد إلى الوريد قد يتوافق على أي أمر اليوم إلا على اعتبار بشار الأسد رئيساً توافقياً لجموع المواطنين. ففي أي عقل، وحسب أي منطق، يمكن أن تستقيم هذه اللفظة التوافقية مع شعار «الأسد أو لا أحد» الذي رفعه النظام منذ الأسابيع الأولى لانتفاضة الكرامة؟ وفي أي عقل أو منطق يمكن أن ينسجم هذا الشعار التوافقي مع شعار «الأسد أو نحرق البلد» الذي رفعه النظام قبل ظهور أي قطعة سلاح في مواجهة بطشه المبكّر، ثم حققه عملياً بتدمير البلاد؟ كيف يمكن فهم توافقية الشعار حيث ينزح 9500 سوري كل يوم بمعدل عائلة واحدة

كل دقيقة حسب التقرير الذي أصدره مؤخراً مركز رصد النزوح التابع للمجلس النرويجي لشؤون اللاجئين؟

وأخيرا وليس آخراً كيف تستقيم هذه الـ(سوا) بينما كان قد سبق للرئيس أن أعلن نفسه رئيساً لجزء فقط من المواطنين في خطاب له يوم 3 حزيران 2012 حين قال: «وأنا أقول كي أكون دقيقاً إن الرئيس هو لكل من يقف تحت سقف الوطن والدستور والقانون وإلا ساويت بين العميل والوطني وبين الضحية والجلاد وبين الفاسد والشريف وبين من يخرب ومن يبني ..»، ولسنا بحاجة إلى محللين لغوين لنعرف من المقصود في تلك التصنيفات الرئاسية.

لقد بدأت حملة الانتخابات بما تفرزه كل المناسبات «الوطنية» في عهد الحداثة الأسدية. وأبرزها مواكب السيارات الشبيحة الحاملة لمواطنين شبيحة فرحين بانتخاباتهم الشبحية، وهي عراضات تجعلنا نفكّر كم كان «جوناتان سويفت» محقاً عندما قال: «المتسكع اليقظ لا يخفى عليه أن أكثر الوجوه انشراحاً نجدها دائماً في سيارات دفن الموتى». يا لها من سخرية سوداء.

15 **أيار** 2014

36. من أين جاؤوا؟

باتت الأحاديث عن العنف الذي تمارسه جماعات إسلامية متشددة في المنطقة محطة مركزية لكل لقاء بين مواطنين حتى لو كان لقاء عابراً بين متحادثين لا تمتد معرفة بعضهم ببعض لأبعد من لحظة تصادف وجودهم في ذات المكان. وقد لا يخلو حديث منها من التساؤل المفتوح على الاستغراب أو الاستهجان أو صعوبة التصديق: من أين جاء هؤلاء التكفيريون الذين يتباهون بالرؤوس المقطوعة وبأعداد من ينفّذون فيهم فعل القتل؟!

تساؤل يضمر غالباً إجابة مشتهاة يتوسّلها المتحدث. إجابة تنفي عن الجماعة التي يشعر بالانتماء إليها أي قرابة، أو ارتباط، أو معرفة بهم. الشيخ المسلم يقول هؤلاء لا يمثلون الدين الحنيف. الموالي للنظام يقول إنهم غزاة من بلدان أخرى. الرئيس الأمريكي ينعتهم بالسرطان في ما يمكن اعتباره إشارة منه إلى كونهم، مثل هذا المرض، مجهولي الأصل... الجميع يتبرؤون من اللوثة، وإن كانوا (السياسيون منهم) في الحقيقة يتلمّظون، خلف أقنعتهم التطهريّة، استساغةً للحلوى التي ترميها هذه الجماعات العنيفة فوق أطباق مصالحهم.

لكن، إن كان كل هؤلاء يتبرؤون من ظاهرة العنف فمن أين جاءت

هذه إذن؟ أتراها انبثقت من العدم كما انبثقت أثينا من عقل زيوس أم هي ثمرة طبيعية لمعطيات تشارك متبرئو اليوم في صنعها أمس؟

في البدء، هناك الأرضية الثقافية التي تحمل بذور العنف. فالدين، وهنا الدين الإسلامي خاصة الذي يشكّل المكوّن الثقافي الأكثر تأثيراً وحضوراً، لا ينفي العنف والغلبة والشدة. وربما بالقدر ذاته الذي لا ينفي فيه التسامح والسلم والمحبة. فالنص القرآني لا يخلو من الدعوات إلى القتل «اقتلوهم حيث ثقفتموهم»، والتعذيب «ضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق»، والتمثيل «أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف»... أما التاريخ الإسلامي فحكايات العنف فيه، بدءاً من السيرة النبوية وحتى نهاية الخلافة الإسلامية في مطالع القرن العشرين، تتجاور مع حكايات التسامح، بل وتزيد عليها أحياناً.

إن وجود العنف في المرجعيات المؤسِسة للثقافة الدينية يشرعنه حتماً، ولا يعارض بالتالي ممارسته إذا ما وُجد المناخ المؤاتي لذلك. وفي هنا تقوم الرابطة بين ما هو ديني في العقيدة وما هو دنيوي في السياسة. العقيدة ترمي البذار والسياسة توفّر لها ظروف الإنتاش. فنظام الاستبداد لم يقم بما يسمح بتحييد الثقافة الدينية، بل على العكس قوّاها ومكّنها، مراءاةً أو تدليساً، وربما سوء تقدير. لن نكرر هنا ما صار معروفاً من غزل النظام للثقافة الإسلامية بشتى طبقاتها حتى الجهادية التي جعل لها موقعاً متقدماً في البلاد تنشر منه وتنتشر. لكن هذه لم تكن «الخدمة» الوحيدة التي يقدمها النظام للتشدد. فهو باستخدامه المفرط، بل قل الأسطوري، للعنفِ أيقظ العنفَ المرَوّض في نفوس المتديّنين ودفعهم دفعاً إلى تفعيله في ما أصبح، في نظرهم، بمثابة صراع للدفاع عن الوجود.

ردّ الفعل هذا على عنف النظام لا يختلف، في جوهره وفي آليات

بروزه، عن ارتكاس المتديّنين والأصوليين على ممارسات الغربيين في بعض القضايا ذات التأثير العميق في حياتهم. فالظلم الذي عانته ولا تزال تعانيه بعض الشعوب ذات الأغلبية المسلمة من أفغانستان إلى العراق وبشكل خاص في فلسطين حيث تنتهك إسرائيل حقوق الإنسان نهاراً جهاراً بلا حسيب ولا رقيب، لا يمكنها إلا أن تثير حفيظة المتديّنين وتدفعهم إلى الميل نحو الطرف العنيف من مرجعياتهم الثقافية.

إن الثقافة الدينية ليست عنيفة بالمطلق، ولا رحيمة بالمطلق. لكنها إن حظيت بسياسة دنيوية ديمقراطية رحيمة وعاقلة، صارت رحيمة وتعقّلت، وإن تعثّرت بسياسات استبدادية واستكبارية صارت استبدادية وأطلقت العنف الكامن فيها. لذا فالسؤال الصحيح أمام ظاهرة التكفيريين المجرمين ليس: «مِن أين جاؤوا؟» وإنما «مَن جدّ واجتهد حتى يظهروا؟».

3 **أيلول** 2014

37. الدولة الإسلامية «ليست» باقية

جاءت «داعش» باعتقادي من تضافر عدد من المعطيات:

1. الجانب العنفي في الثقافة الإسلامية، حيث تتجاور الدعوات إلى العنف والقتل مع دعوات التسامح والرحمة في النصوص المؤسسة للعقيدة. وكذلك تتداخل قصص العنف مع قصص الرحمة في التاريخ الإسلامي منذ السيرة النبوية حتى اليوم. يكفي أن نستمع إلى خطب بعض الدعاة من شيوخ التطرف من أمثال «محمد العريفي» و«نبيل العوضي» و«صالح اللحيدان»، على سبيل المثال لا الحصر، لنلمس العلاقة المتينة بين الخطاب الديني والتشدد الذي تمثل داعش إحدى تجلياته.

2. عنف النظام: فقد تصاعدت الوحشية التي مارستها أجهزة القمع الرسمية المختلفة منذ اندلاع انتفاضة الكرامة لتبلغ درجة لا يمكن معها الاستغراب من ظهور ردود أفعال توازي في عنفها عنف النظام. إن قطع الرؤوس والصلب والإعدامات الجماعية عمليات وحشية بامتياز لكن ما الذي يفرّقها عن أشكال التعذيب والقتل والإعدامات الجماعية التي قامت بها أجهزة النظام في الميدان أو في السجون؟

3. الأوضاع التعبوية والمادية التي وجد فيها الجيش الحر: جاء تشكُّل الجيش الحر ردّاً طبيعياً على الحل العسكري الذي اختاره النظام منذ

اليوم الأول للمظاهرات. هذه النتيجة لم تردها ولم تتمناها غالبية القوى المشاركة في الانتفاضة السلمية لكنها جُرّت إلى أرض مواجهة ليست لها فيها أي خبرة، ولا تمتلك فيها ما يكفي من العتاد لمواجهة الترسانة الهائلة للخصم، وتفتقد للموارد المالية الكافية القادرة على تعويض نضوب الموارد المالية للمقاتلين وعائلاتهم. فما كان من الكثير منهم إلا أن ذهبوا إلى من لديه الموارد الكافية لتغطية النقص في المال والعتاد وخاصة بعد تعزز الصفة الدينية، والطائفية، لغالبية الكتائب المقاتلة في الجيش الحر.

4. الوضع الحقوقي الدولي إذ ثمّة تراخٍ دولي محبِط في تقدير كرامة البشر واحترام حقوق الإنسان. كل القيم أصبحت مهانة، وكل الحقوق مستباحة، ويجب علينا أخذ اعتبار ذلك عند التساؤل عن العنف الناهض المؤسس للحركات الجهادية. كيف يمكننا ألا نتفهم ثورة المسلمين في أي مكان في العالم لرؤية إسرائيل مثلاً تنتهك الأعراف والمواثيق في فلسطين؟ أو كيف يمكننا ألا نستوعب ثورتهم أمام سكوت العالم أمام جريمة بحجم جريمة قصف الغوطة بالسلاح الكيماوي؟

5. الجاذب المالي: إذ أن الكثير من الملتحقين بقوى الجهاد الإسلامي، مثل داعش وأخواتها، هم من الشباب المحرومين والعاطلين عن العمل في بلدانهم والذين يجدون لدى داعش «عملاً» مجزياً، يضيف على متعة الالتزام الديني متعة الاكتفاء المادي الدنيوي. ولم يعد خافياً على أحد أن هجرة المقاتلين من ألوية الجيش الحر إلى داعش والنصرة تلقى في التباين بين المكافآت المدفوعة من هؤلاء وأولئك تبريراتها المباشرة.

جاءت المعطيات المذكورة أعلاه، في غالبيتها، نتيجة لظروف تفاعلت لتخلق المناخ الملائم لإنتاش بذور العنف على الشكل الداعشي

أو النصروي. هذا ما يسمح لنا بالاعتقاد أن زوال هذه الظروف سيعيد عفاريت العنف الكامنة في الثقافة الإسلامية إلى قماقمها. إن اختيار داعش، من بين كل شعاراتها البسيطة، لشعار «الدولة الإسلامية باقية» لتلزم الجنود المساقين إلى ساحة الإعدام على ترديده أمام مصوري العملية لهو برأينا دليل على القناعة الدفينة، لدى القادة الداعشيين أنفسهم، بأن بقاء الدولة أمر صعب بل مستحيل، وأنهم كانوا يصعّدون الخوف الدفين من الزوال بإجبار الضحايا على ترديد البقاء كحقيقة مشتهاة.

هذه القناعة لا تدفعنا إلى الدعوة إلى الاستكانة لتقلبات التاريخ بل هي دعوة للعمل على قلب التاريخ وحشد الجهود من أجل القضاء على هذا الوحش الملثم الذي لا علاقة له بدينٍ أو حضارة أو ثقافة عرفها الإنسان.

5 **أيلول** 2013

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.

17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.